تعامل النبي ﷺ مع ذوي الهيئاتِ

لقد تمثّل سموَّ أخلاقِ النبيِّ ﷺ في صورٍ عديدةٍ، ومع فئاتِ المجتمع قاطبةً: مسلمهم وكافرهم، غنيّهم وفقيرهم، رئيسهم ومرؤوسهم.

ولقد كان لذوي الهيئاتِ والمكانةِ، والجاهِ شأنٌ خاصٌّ من المعاملةِ والإكرامِ والاحترامِ عند النبيِّ ﷺ.

فهو يعطي كلَّ ذي حقٍّ حقّه، فلا ينزلُ كبراءَ الناسِ من منازلهم، بل يحفظُ لهم مكانتهم الخاصّة في أقوامهم، ويأمرُ بذلك أصحابه.

قال الإمام مسلم أثناء كلامه عن مراتب الرواة: «لا يقصّرُ بالرّجلِ العالي القدرِ عنْ درجتهِ، ولا يرفعُ متّضعُ القدرِ في العلمِ فوقَ منزلتهِ، ويعطى كلُّ ذي حقٍّ فيهِ حقّهُ، وينزّلُ منزلتهُ، وقدْ ذكرَ عنْ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنّها قالتْ: أمرنا رسولُ الله ﷺ أنْ ننزّلَ النّاسَ منازلهمْ»[1].

فكان النبيُّ ﷺ يحفظ لهم مكانتهم، ووجاهتهم في قومهم:

كان أبو سفيان من كبراءِ قريش، ثم صارَ سيّدها بعد ذهابِ رؤوسها، وفي غزوةِ أحدٍ كان رأسَ قريشٍ، فلما أسلمَ جعلَ النبيُّ ﷺ له ذكراً عند فتحِ مكّةَ.

---

(١) مقدمة صحيح مسلم [١/ ٢].

والحديث الذي ذكره الإمام مسلم رواه أبو داود [٤٨٤٢]، وصححه الحاكم في معرفة علوم الحديث [١/ ٩٦]، وابن الصلاح في مقدمته [ص٣٠٧]، وحسّنه السخاوي في المقاصد [١٨٠]، والعجلوني في كشف الخفاء [١/ ١٩٥]، وضعّفه أبو داود في سننه، والبيهقي في الشعب [١٠٩٩٩]، والألباني في تحقيق رياض الصالحين [٣٦٠]، وعلى كلٍّ حال فمعناه صحيحٌ.

فعنِ ابنِ عبّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ رسولَ الله ﷺ عامَ الفتحِ جاءهُ العبّاسُ بنُ عبدِ المطّلبِ بأبي سفيانَ بنِ حربٍ، فأسلمَ.

فقالَ لهُ العبّاسُ: يا رسولَ الله! إنَّ أبا سفيانَ رجلٌ يحبُّ الفخرِ، فلوْ جعلتَ لهُ شيئاً؟

فقالَ النبي ﷺ: «**نعمْ، منْ دخلَ دارَ أبي سفيانَ فهوَ آمنٌ، ومنْ أغلقَ عليهِ بابهُ فهوَ آمنٌ**»(١).

وعن أبي هريرة في قصة الفتح قال: (...وصعدَ رسولُ الله ﷺ الصّفا، وجاءتِ الأنصارُ، فأطافوا بالصّفا.

فجاءَ أبو سفيانَ، فقالَ: يا رسولَ الله أبيدتْ خضراءُ قريشٍ، لا قريشَ بعدَ اليومِ.

فقالَ رسولُ الله ﷺ: «**منْ دخلَ دارَ أبي سفيانَ فهوَ آمنٌ، ومنْ ألقى السّلاحَ فهوَ آمنٌ، ومنْ أغلقَ بابهُ فهوَ آمنٌ**»(٢).

قال النووي: «وفيهِ تأليفٌ لأبي سفيان، وإظهار لشرفهِ»(٣).

وعنْ عائذِ بنِ عمرٍو أنَّ أبا سفيانَ أتى على سلمانَ، وصهيبٍ، وبلالٍ في نفرٍ [وهذا الإتيان لأبي سفيان كانَ وهوَ كافر في الهدنة بعد صلح الحديبية]، فقالوا: والله ما أخذتْ سيوفُ الله منْ عنقِ عدوِّ الله مأخذها(٤).

فقالَ أبو بكرٍ: أتقولونَ هذا لشيخِ قريشٍ وسيّدهمْ؟!

فأتى النّبيَّ ﷺ فأخبرهُ، فقالَ: «**يا أبا بكرٍ لعلّكَ أغضبتهمْ، لئنْ كنتَ أغضبتهمْ؛ لقدْ أغضبتَ ربّكَ**».

فأتاهمْ أبو بكرٍ فقالَ: يا إخوتاهْ أغضبتكمْ؟

---

(١) رواه أبو داود [٣٠٢١] وحسّنه الألباني في صحيح أبي داود [٣٠٢١].

(٢) رواه مسلم [١٧٨٠].

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم [١٢/ ١٢٧].

(٤) أي: ما استوفت حقّها من المكافأة له على صنيعه بالمسلمين.

قالوا: لا، يغفرُ الله لكَ يا أخي[١].

فلم ينكرْ على أبي بكرٍ قوله من وجوب حفظِ مكانةِ سيّدِ قريش، وإنما نهاه أن يكون قد أغضبَ أصحابهُ.

ولما قدم سعدُ بنُ معاذ سيّدُ الخزرج رضي الله عنه؛ ليحكم في بني قريظة أمرهم ﷺ أن يقوموا إليه إكراماً له.

عنْ أبي سعيدٍ الخدريِّ رضي الله عنه قالَ: نزلَ أهلُ قريظةَ على حكمِ سعدِ بنِ معاذٍ، فأرسلَ رسولُ الله ﷺ إلى سعدٍ، فأتاهُ على حمارٍ.

فلمّا دنا قريباً منَ المسجدِ قالَ رسولُ الله ﷺ للأنصارِ: «**قوموا إلى سيّدكمْ، أوْ خيركم، فأنزلوه**».

فقعدَ عندَ النّبيِّ ﷺ[٢].

قال ابن حجر رحمه الله: «فيهِ: إكرامُ أهلِ الفضلِ»[٣].

وهذا القيامُ ليس من القيامِ المنهيِّ عنه، وذلك؛ لأن القيامَ على ثلاثةِ أقسام:

الأول: القيامُ إلى الرجل، وهو من السّنّة، إذا كان الرجلُ الّذي قمتَ إليه أهلاً لذلك، مثل ما لو دخل إنسانٌ له فضلٌ في علمه، أو دينه، أو ماله، ثم قمتَ لتتلقّاه فهذا من السّنّة، ومنه حديث: «**قوموا إلى سيّدكمْ**»، ولأن هذا من الإكرامِ لذوي الفضل، وإكرامُ ذوي الفضل من محاسنِ الأعمالِ، والآدابِ.

الثاني: القيامُ على الرجل، وهذا منهيٌّ عنه، نهى النبيُّ ﷺ عن ذلك، وقال لأصحابه لما صلوا قياما وهو جالس: «**إنْ كدتمْ آنفاً لتفعلونَ فعلَ فارسَ والرّومِ، يقومونَ على ملوكهمْ وهمْ قعودٌ، فلا تفعلوا**»[٤].

---

(١) رواه مسلم [٢٥٠٤].

(٢) رواه البخاري [٣٠٤٣]، ومسلم [١٧٦٨].

(٣) فتح الباري [١١/ ٤٩].

(٤) رواه مسلم [٤١٣] عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

الثالث: القيامُ للرجل، وصورته أن يدخلَ رجلٌ علينا، فنقوم له تكريماً، فهذا لا بأسَ به، لكن الأولى تركه؛ لأن منْ هديِ الرسول ﷺ أنه كان يكرهُ أن يقومَ أصحابه له؛ ولهذا كان الرسولُ ﷺ يدخلُ، ولا يقومون له، وهو أشرفُ البشرِ ﷺ، وكان يجلسُ حيثُ ينتهي به المجلسُ[١].

وكان يحرصُ ﷺ على دعوتهم إلى الله، ويطمعُ في إسلام كبراء القوم ووجهائهم رغبةً في إسلام من وراءهم، ولذلك كان يوليهم عناية خاصّة في الدعوة.

ومن ذلك: انشغاله بدعوة الوليدِ بن المغيرةِ، وهو من عظماءِ قريش وكبرائهم؛ طمعا في إسلامه.

وهو الذي انشغلَ النبيُّ ﷺ بدعوته لمّا جاءه ابنُ أمِّ مكتومٍ، فأعرض رسولُ الله ﷺ عن ابنِ أمِّ مكتوم، وأقبل عليه.

عنْ عائشةَ قالتْ: أنزلَ ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ [عبس: ١] في ابنِ أمِّ مكتومٍ الأعمى، أتى رسولَ الله ﷺ، فجعلَ يقولُ: يا رسولَ الله أرشدني.

وعندَ رسولِ الله ﷺ رجلٌ منْ عظماءِ المشركينَ، فجعلَ رسولُ الله ﷺ يعرضُ عنهُ، ويقبلُ على الآخرِ، ويقولُ: «**أترى بما أقولُ بأساً**».

فيقولُ: «لا».

ففي هذا أنزلَ[٢].

ومما يدلُّ على حرصه على هداية الناس، وخاصّة الزّعماء منهم:

قوله: «اللهمَّ أعزَّ الإسلامَ بأحبِّ هذينِ الرّجلينِ إليكَ: بأبي جهلٍ، أوْ بعمرَ بنِ الخطّابِ». قال: وكان أحبّهما إليه عمرُ»[٣].

---

(١) انتهى ملخّصاً من لقاء الباب المفتوح لابن عثيمين [٥٩ / ٢٥] بتصرف.

(٢) رواه الترمذي [٣٣٣١] وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي [٢٦٥١].

(٣) رواه الترمذي [٣٦٨١] عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وصحّحه الألباني في سنن الترمذي [٢٩٠٧].

وعنْ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنَّ النّبيَّ ﷺ قال: «**اللهمَّ أعزَّ الإسلامَ بعمر بنِ الخطّابِ خاصّةً**»(١).

ولا منافاة بين الحديثين؛ قال الألبانيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا منافاةَ؛ لاحتمالِ أن يكونَ هذا قاله ﷺ في أوّلِ الأمرِ، فلمّا رأى عنادَ أبي جهلٍ، وإصراره على معاداته ﷺ؛ دعا لعمرَ خاصّةً، واستجابَ الله دعاءه، وأعزَّ الله به دينه، كما هو معروفٌ في سيرته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو ما صرّح به عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بقوله: «ما زلنا أعزّةً منذُ أسلمَ عمرُ»(٢).

ولما اشتدَّ البلاءُ من قريش على رسول الله ﷺ بعد موت عمّه خرج إلى الطائف، رجاء أن يؤووهُ، وينصروه على قومه، ويمنعوهُ منهم حتى يبلّغَ رسالةَ ربّه.

ودعاهم إلى الله عَزَّوَجَلَّ، فلم يرَ منْ يؤويهِ ولا من ينصره، وآذوهُ أشدَّ الأذى، ونالوا منه ما لم ينلْ قومه، فأقام بينهم عشرة أيام، **لا يدعُ أحداً من أشرافهم إلا كلّمه**(٣).

وذلك لأن استجابةَ الأشرافِ والكبراءِ لدعوته يتبعها استجابةُ منْ وراءهم من الناسِ والأتباعِ.

ومن ذلك: دعوته للطّفيل بنِ عمرو، وهو من سادةِ قومه.

عن محمّدِ بنِ إسحاق، قال: «كان الطّفيلُ بنُ عمرٍو الدّوسيُّ يحدّثُ أنّهُ قدمَ مكّةَ، ورسولُ الله ﷺ بها.

فمشى إليهِ رجالٌ منْ قريشٍ - وكانَ الطّفيلُ رجلاً شريفاً شاعراً لبيباً -، فقالوا لهُ: يا طفيلُ إنّك قدمت بلادنا، وهذا الرّجلُ الّذي بينَ أظهرنا قدْ أعضلَ بنا [أي: أشتدَّ أمره علينا]، وقدْ فرّقَ جماعتنا، وشتّتْ أمرنا، وإنّما قولهُ كالسّحرِ يفرّقُ بينَ الرّجلِ وبينَ أبيهِ، وبينَ الرّجلِ وبينَ أخيهِ، وبينَ الرّجلِ وبينَ زوجتهِ، وإنّا نخشى عليك وعلى قومك ما قدْ دخلَ علينا، فلا تكلّمنّهُ، ولا تسمعنَّ منهُ شيئاً.

---

(١) رواه ابن حبان [٦٨٨٢]، وصحّحه الحاكم [٤٤٨٥]، والذهبي، والحافظ في الفتح [٧/ ٤٨]، والألباني في الصحيحة [٣٢٢٥].

(٢) أخرجه البخاري [٣٨٦٣]. وانظر: الصحيحة [١٣/ ٢٨].

(٣) زاد المعاد [٣/ ٢٨].

قالَ: فوالله ما زالوا بي حتّى أجمعتُ أنْ لا أسمعَ منهُ شيئاً، ولا أكلّمهُ حتّى حشوتُ في أذني حينَ غدوت إلى المسجدِ كرسفاً[1]، فرقاً منْ أنْ يبلغني شيءٌ منْ قولهِ، وأنا لا أريدُ أنْ أسمعهُ.

قالَ: فغدوت إلى المسجدِ، فإذا رسولُ الله ﷺ قائمٌ يصلّي عندَ الكعبةِ، فقمتُ منهُ قريباً، فأبى الله إلّا أنْ يسمعني بعضَ قولهِ.

فسمعتُ كلاماً حسناً، فقلت في نفسي: واثكلَ أمّي، والله إنّي لرجلٌ لبيبٌ شاعرٌ، ما يخفى عليَّ الحسنُ منَ القبيحِ، فما يمنعني أنْ أسمعَ منْ هذا الرّجلِ ما يقولُ، فإنْ كانَ الّذي يأتي بهِ حسناً قبلتهُ، وإنْ كانَ قبيحاً تركتهُ.

فمكثتُ حتّى انصرفَ رسولُ الله ﷺ إلى بيتهِ، فاتّبعته، حتّى إذا دخلَ بيتهُ دخلتُ عليهِ.

فقلتُ: يا محمّدُ، إنَّ قومك قالوا لي كذا وكذا، فوالله ما برحوا يخوّفونني أمرك حتّى سددتُ أذني بكرسفٍ؛ لئلّا أسمعَ قولك، ثمّ أبى الله إلّا أنْ يسمعني قولك، فسمعته قولاً حسناً، فاعرضْ عليَّ أمرك.

فعرضَ عليَّ رسولُ الله ﷺ الإسلامَ، وتلا عليّ القرآنَ، فلا والله ما سمعتُ قولاً قطّ أحسنَ منهُ، ولا أمراً أعدلَ منهُ.

فأسلمتُ، وشهدتُ شهادةَ الحقِّ، وقلتُ: يا نبيَّ الله إنّي امرؤ مطاعٌ في قومي، وأنا راجعٌ إليهمْ، وداعيهمْ إلى الإسلامِ، فادعُ الله أنْ يجعلَ لي آيةً تكونُ لي عوناً عليهمْ فيما أدعوهمْ إليهِ.

فقالَ: «**اللهمّ اجعلْ لهُ آيةً**».

فخرجتُ إلى قومي، حتّى إذا كنت بثنيّةِ[2] تطلعني على الحاضِر[3]، وقعَ نورٌ بيَن عينيَّ مثلَ المصباحِ، فقلتُ: اللهمَّ في غيرِ وجهي، إنّي أخشى أنْ يظنّوا أنّها مثلةٌ وقعتْ في وجهي؛ لفراقِ دينهمْ.

---

(١) وهو القطن.

(٢) الثنية: الطريق في الجبل.

(٣) الحاضر: القوم النازلون على الماء.

فتحوّلَ، فوقعَ في رأسِ سوطي.

فجعلَ الحاضرُ يتراءونَ ذلكَ النّورَ في سوطي كالقنديلِ المعلّقِ، وأنا أهبطُ إليهمْ منَ الثّنيّةِ، حتّى جئتهمْ، فأصبحتُ فيهمْ.

فلمّا نزلتْ أتاني أبي، وكانَ شيخاً كبيراً، فقلتُ: إليكَ عنّي يا أبتِ، فلستُ منك، ولست منّي.

قالَ: ولمَ يا بنيَّ؟

قلتُ: أسلمتُ، وتابعتُ دينَ محمّدٍ ﷺ.

قالَ: أيْ بنيَّ، فديني دينك.

فقلتُ: فاذهبْ، فاغتسلْ، وطهّرْ ثيابك، ثمَّ تعالَ حتّى أعلّمك ما علّمتُ.

فذهبَ، فاغتسلَ، وطهّرَ ثيابهُ، ثمّ جاءَ، فعرضتُ عليهِ الإسلامَ، فأسلمَ.

ثمّ أتتني صاحبتي، فقلتُ: إليك عنّي، فلستُ منك، ولست منّي.

قالتْ: لمَ؟ بأبي أنتَ وأمّي.

قلتُ: قدْ فرّقَ بيني وبينك الإسلامُ، وتابعتُ دينَ محمّدٍ ﷺ.

قالتْ: فديني دينكَ.

قلتُ: فاذهبي فتطهّري.

فاغتسلتْ، ثمّ جاءتْ، فعرضتُ عليها الإسلامَ، فأسلمتْ.

ثمّ دعوتُ دوساً إلى الإسلامِ، فأبطئوا عليّ.

ثمّ جئتُ رسولَ الله ﷺ بمكّةَ، فقلتُ لهُ: يا نبيَّ الله أنّهُ قدْ غلبني على دوسٍ الزّنا، فادعُ الله عليهمْ.

فقالَ: «**اللهمّ اهدِ دوساً، ارجعْ إلى قومك فادعهمْ، وارفقْ بهمْ**».

قالَ: فلمْ أزلْ بأرضِ دوسٍ، أدعوهمْ إلى الإسلامِ حتّى هاجرَ رسولُ الله ﷺ إلى المدينةِ، ومضى بدرٌ، وأحدٌ، والخندقُ.

ثمّ قدمتُ على رسولِ الله ﷺ بمنْ أسلمَ معي منْ قومي، ورسولُ الله ﷺ بخيبرِ، حتّى نزلتُ المدينةَ بسبعينَ، أوْ ثمانينَ بيتاً منْ دوسٍ.

ثمّ لحقنا برسولِ الله ﷺ بخيبرِ، فأسهمَ لنا معَ المسلمينَ.

حتّى إذا فتحَ الله عليهِ مكّةَ، قلتُ: يا رسولَ الله، ابعثني إلى ذي الكفّينِ صنمِ عمرو بنِ حممةَ حتّى أحرّقهُ.

فخرجَ إليهِ، فجعلَ طفيلٌ يوقدُ عليهِ النّارَ، ويقولُ:

يا ذا الكفّينِ لستُ منْ عبّادكا
ميلادنا أقدمُ منْ ميلادكا
إنّي حشوت النّارَ في فؤادكا

ثمّ رجعَ إلى رسولِ الله ﷺ، فكانَ معهُ بالمدينةِ، حتّى قبضَ الله رسولهُ ﷺ(١).

ومن ذلك: دعوته لملوكِ الأرضِ:

لأنهم إذا أسلموا أسلمَ قومهم تبعاً لهم.

في أواخرِ السنةِ السادسةِ حينَ رجعَ رسولُ الله ﷺ من الحديبيةِ كتبَ إلى الملوكِ يدعوهم إلى الإسلامِ(٢).

قال ابن هشام: «فبعثَ رسولُ الله ﷺ رسلاً منْ أصحابهِ، وكتبَ معهمْ كتباً إلى الملوكِ يدعوهمْ فيها إلى الإسلامِ.

---

(١) رواه البيهقي في دلائل النبوة [٥/ ٤٦٠]، وقال ابن كثير: هكذا ذكر محمد بن إسحاق قصة الطفيل بن عمرو مرسلة بلا إسناد، ولخبره شاهدٌ في الحديث الصحيح. السيرة النبوية لابن كثير [٢ / ٧٦]
فعن أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قدمَ طفيلُ بنُ عمرٍو الدّوسيُّ وأصحابهُ على النّبيِّ ﷺ، فقالوا: يا رسولَ الله، إنَّ دوساً عصتْ وأبتْ؛ فادعُ الله عليها، فقيلَ: هلكتْ دوسٌ قالَ: «اللهمَّ اهدِ دوساً، وأتِ بهمْ». رواه البخاري [٢٩٣٧]، ومسلم [٢٥٢٤].

(٢) الرحيق المختوم [ص٣٢٠].

فبعثَ دحيةَ بنَ خليفةَ الكلبيَّ إلى قيصرَ، ملكِ الرّومِ.

وبعثَ عبدَ الله بنَ حذافةَ السّهميَّ إلى كسرى، ملكِ فارسَ.

وبعثَ عمرو بن أميّةَ الضّمريَّ إلى النّجاشيِّ، ملكِ الحبشةِ.

وبعثَ حاطبَ بنَ أبي بلتعةَ إلى المقوقسِ، ملكِ الإسكندريّةِ...»[١].

وفي قصة أبي سفيان مع هرقل عظيم الروم قالَ هرقل لأبي سفيان: إنْ يكنْ ما تقولُ فيهِ حقّاً فإنّهُ نبيٌّ، وقدْ كنتُ أعلمُ أنّهُ خارجٌ، ولمْ أكنْ أظنّهُ منكمْ، ولوْ أنّي أعلمُ أنّي أخلصُ إليهِ؛ لأحببتُ لقاءهُ، ولوْ كنتُ عندهُ لغسلتُ عنْ قدميهِ، وليبلغنَّ ملكهُ ما تحتَ قدميَّ.

قالَ: ثمَّ دعا بكتابِ رسولِ الله ﷺ، فقرأهُ، فإذا فيهِ: «**بسمِ الله الرّحمنِ الرّحيمِ منْ محمّدٍ رسولِ الله إلى هرقلَ عظيمِ الرّومِ: سلامٌ على منِ اتّبعَ الهدى أمّا بعدُ،**

فإنّي أدعوكَ بدعايةِ الإسلامِ، أسلمْ تسلمْ، وأسلمْ؛ يؤتكَ الله أجركَ مرّتينِ، وإنْ تولّيتَ فإنَّ عليكَ إثمَ الأريسيّينَ»[٢].

وكان ﷺ يفرحُ بإسلامِ من أسلمَ منهم:

عنِ ابنِ شهابٍ الزهري: أنَّ أمَّ حكيمٍ بنتَ الحارثِ بنِ هشامٍ كانتْ تحتَ عكرمةَ بنِ أبي جهلٍ، فأسلمتْ يومَ الفتحِ، وهربَ زوجها عكرمةُ بنُ أبي جهلٍ منَ الإسلامِ حتّى قدمَ اليمنَ.

فارتحلتْ أمُّ حكيمٍ حتّى قدمتْ عليهِ باليمنِ، فدعتهُ إلى الإسلامِ.

فأسلمَ، وقدمَ على رسولِ الله ﷺ عامَ الفتحِ.

فلمّا رآهُ رسولُ الله ﷺ وثبَ إليهِ فرحاً، وما عليهِ رداءٌ، حتّى بايعهُ[٣].

---

(١) السيرة النبوية [٢/ ٦٠٧] لابن هشام.

(٢) رواه البخاري [٧]، ومسلم [١٧٧٣] عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) رواه مالك في الموطأ [١١٥٦]، وعبد الرزاق في المصنف [١٢٦٤٦]، وقال النووي: روي مرسلًا، ويجوز الاحتجاج به لشواهده. الترخيص بالقيام [ص ٤٤].

قال الباجي: «وقولهُ: «**فلمّا رآهُ رسولُ الله ﷺ وثبَ إليهِ فرحاً وما عليهِ رداءٌ**»، وذلكَ منْ حرصِ النّبيِّ ﷺ على دخولِ النّاسِ في الإسلامِ... لا سيّما منْ كانَ منْ عظماءِ النّاسِ وأعيانهمْ، كعكرمةَ في قومه، فإنّهُ كانَ منْ ساداتِ بني مخزومٍ، وعظمائهمْ»[1].

وكذلك فرح بإسلامِ عديِّ بن حاتمٍ الطائيِّ، الذي كان سيّدَ قبيلة طيّئ بعد موتِ أبيه.

عنْ عديِّ بنِ حاتمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: ما منْ رجلٍ منَ العربِ كانَ أشدَّ كراهيةً لرسولِ الله ﷺ حينَ سمعَ بهِ منّي.

أمّا أنا فكنت امرأً شريفاً، وكنتُ نصرانيّاً، وكنت أسيرُ في قومي بالمرباعِ[2]، فكنتُ في نفسي على دينٍ، وكنت ملكاً في قومي؛ لما كانَ يصنعُ بي.

فلمّا سمعتُ برسولِ الله ﷺ كرهته، فقلت لغلامٍ كانَ لي عربيٍّ، وكانَ راعياً لإبلي: لا أبا لك، أعددْ لي منْ إبلي أجمالاً ذللاً[3] سماناً، فاحتبسها قريباً منّي، فإذا سمعتُ بجيشٍ لمحمّدٍ قدْ وطئَ هذهِ البلادَ؛ فآذنّي.

ففعلَ.

ثمّ إنّهُ أتاني ذاتَ غداةٍ، فقالَ: يا عديُّ ما كنتَ صانعاً إذا غشيتكَ خيلُ محمّدٍ؛ فاصنعهُ الآنَ، فإنّي قدْ رأيتُ راياتٍ، فسألتُ عنها، فقالوا: هذهِ جيوشُ محمّدٍ.

فقلت: فقرّبْ إليَّ أجمالي، فقرّبها، فاحتملت بأهلي، وولدي.

ثمّ قلتُ: ألحقُ بأهلِ ديني منَ النّصارى بالشّامِ.

وخلّفتُ بنتاً لحاتمٍ في الحاضرِ، فلمّا قدمتُ الشّامَ أقمتُ بها.

وتخالفني خيلٌ لرسولِ الله ﷺ، فتصيبُ ابنةَ حاتمٍ فيمنْ أصابتْ، فقدمَ بها على رسولِ الله ﷺ في سبايا منْ طيّئٍ.

---

(١) المنتقى شرح الموطأ [٣/ ٣٤٦].

(٢) ربع الغنيمة كان سادات الجاهلية يأخذونه. ينظر: النهاية [٢/ ١٨٦].

(٣) جمع ذلول، وهي السهلة المطيعة.

وقدْ بلغَ رسولَ الله ﷺ هربي إلى الشّامِ.

فجعلتْ بنتُ حاتمٍ في حظيرةٍ[١] ببابِ المسجدِ كانتِ السّبايا يحبسنَ فيها، فمرّ بها رسولُ الله ﷺ فقامتْ إليهِ، وكانتِ امرأةً جزلةً[٢]، فقالتْ: يا رسولَ الله هلكَ الوالدُ، وغابَ الوافدُ، وأنا عجوزٌ كبيرةٌ ما بي منْ خدمةٍ، فمنَّ عليَّ، منَّ الله عليكَ.

قالَ: «**ومنْ وافدك؟**».

قالتْ: عديُّ بنُ حاتمٍ.

قالَ: «**الفارُّ منَ الله ورسولهِ؟**».

قالت: ثمّ مضى رسولُ الله ﷺ، وتركني.

حتّى إذا كانَ منَ الغدِ مرّ بي، فقلتُ لهُ مثلَ ذلكَ، وقالَ لي مثلَ ما قالَ بالأمسِ.

حتّى إذا كانَ بعدَ الغدِ مرّ بي، وقدْ يئستُ منهُ، فأشارَ إليَّ رجلٌ منْ خلفهِ أنْ قومي، فكلّميهِ.

فقمتُ إليهِ، فقلتُ: يا رسولَ الله هلكَ الوالدُ، وغابَ الوافدُ، فامنْ عليّ منّ الله عليك.

فقالَ ﷺ: «**قدْ فعلتُ، فلا تعجلي بخروجٍ حتّى تجدي منْ قومك منْ يكونُ لهُ ثقةً؛ حتّى يبلّغك إلى بلادك، ثمّ آذنيني**».

فسألتُ عنِ الرّجلِ الّذي أشارَ إليّ أنْ أكلّمهُ، فقيلَ: عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضوانُ الله عليهِ.

وأقمتُ حتّى قدمَ ركبٌ منْ قضاعةَ، فجئتُ رسولَ الله ﷺ، فقلتُ: يا رسولَ الله، قدْ قدمَ رهطٌ منْ قومي، لي فيهمْ ثقةٌ وبلاغٌ.

قالتْ: فكساني رسولُ الله ﷺ، وحملني، وأعطاني نفقةً.

فخرجتُ معهمْ حتّى قدمتُ الشّامَ.

---

(١) شيء يعمل من شجر ليقي البرد والحر والريح. ينظر: النهاية [١/ ٤٠٤]

(٢) أيْ تامّة الخلق. ويجوزُ أنْ تكونَ ذاتَ كلامٍ جزلٍ: أيْ قويّ شديدٍ. النهاية [١/ ٢٧٠]

قالَ عديٌّ: فوالله إنّي لقاعدٌ في أهلي، إذْ نظرتُ إلى ظعينةٍ تصوّبُ إليَّ تؤمّنا، فقلتُ: ابنةُ حاتمٍ، فإذا هيَ هيَ.

فلمّا وقفتْ عليَّ انسحلتْ[1] تقولُ: القاطعُ، الظّالمُ، احتملتَ بأهلك، وولدك، وتركتَ بقيّةَ والدك عورتك!

قلت: أيْ أخيّةُ، لا تقولي إلّا خيراً، فوالله ما لي منْ عذرٍ، لقدْ صنعتُ ما ذكرتِ.

ثمّ نزلتْ، فأقامتْ عندي، فقلتُ لها: وكانتِ امرأةً حازمةً: ماذا ترينَ في أمرِ هذا الرّجلِ؟

قالتْ: أرى والله أنْ تلحقَ بهِ سريعاً، فإنْ يكنِ الرّجلُ نبيّاً؛ فللسّابقِ إليهِ فضلهُ، وإنْ يكنْ ملكاً، فلنْ تذلَّ في عزِّ اليمنِ، وأنتَ أنتَ[2].

قلتُ: والله إنّ هذا الرّأيُ.

فخرجتُ حتّى أقدمَ على رسولِ الله ﷺ المدينةَ، فدخلتُ عليهِ، وهوَ في مسجدهِ، فسلّمتُ عليهِ.

فقالَ القومُ: هذا عديُّ بنُ حاتمٍ.

وجئتُ بغيرِ أمانٍ، ولا كتابٍ.

فلمّا دفعتُ إليهِ أخذَ بيدي، وقدْ كانَ قالَ قبلَ ذلكَ: إنّي لأرجو أنْ يجعلَ الله يدهُ في يدي، فقامَ رسولُ الله ﷺ، فانطلقَ بي إلى بيتهِ.

فوالله إنّهُ لعامدٌ بي إليهِ إذْ لقيتهُ امرأةٌ ضعيفةٌ كبيرةٌ، فاستوقفتهُ، فوقفَ لها طويلاً تكلّمهُ في حاجتها.

فقلتُ في نفسي: والله ما هذا بملكٍ.

ثمّ مضى بي رسولُ الله ﷺ حتّى إذا دخلَ بي بيتهُ، تناولَ وسادةً منْ أدمٍ محشوّةً ليفاً، فقذفها إليَّ، فقالَ: «**اجلسْ على هذهِ**».

---

(١) من السّحل، بمعنى السّحِّ والصّبِّ. النهاية [٢/ ٣٤٨]

(٢) قالته على سبيل العرض والتنزّل؛ لتحرّضه على مجيئه إلى النبي ﷺ؛ لأنها كانت قد أسلمت.

قلتُ: بلْ أنتَ، فاجلسْ عليها.

فقالَ: «**بلْ أنتَ**».

فجلستُ عليها، وجلسَ رسولُ الله ﷺ بالأرضِ.

فقلتُ في نفسي: والله ما هذا بأمرِ ملكٍ.

فقالَ لي: «**يا عديُّ بنَ حاتمٍ، أسلمْ؛ تسلمْ**».

قلتُ: إنّي منْ أهلِ دين.

قالَ: «**يا عديُّ بنَ حاتمٍ أسلمْ تسلمْ**».

قلتُ: إنّي منْ أهلِ دينٍ.

قالَ: «**أنا أعلمُ بدينكَ منكَ**».

قلتُ: أنتَ أعلمُ بديني منّي!.

قالَ: «**نعمْ**».

ثمّ قالَ: «**إيهِ يا عديُّ بنَ حاتمٍ، ألمْ تكُ ركوسيّاً؟**»[1].

قلت: بلى.

قالَ: «**أولمْ تكنْ تسيرُ في قومك بالمرباعِ؟**».

قلت: بلى.

قالَ: «**فإنَّ ذلكَ لمْ يكنْ يحلُّ لك في دينك**».

قلتُ: أجلْ والله، وعرفتُ أنّهُ نبيٌّ مرسلٌ، يعلمُ ما يجهلُ.

قالَ: وبينا أنا عندَ النّبيِّ ﷺ إذْ أتاهُ رجلٌ، فشكا إليهِ الفاقةَ، ثمَّ أتاهُ آخرُ، فشكا إليهِ قطعَ السّبيلِ.

---

(١) نسبة إلى فرقة من النصارى.

ثمّ قالَ: «**لعلّك يا عديُّ، إنّما يمنعكَ منْ دخولٍ في هذا الدّينِ ما ترى منْ حاجتهمْ، فوالله ليوشكنَّ المالُ أنْ يفيضَ فيهمْ حتّى لا يوجدَ منْ يأخذهُ.**

ولعلّك إنّما يمنعك منْ دخولٍ فيهِ ما ترى منْ كثرةِ عدوّهمْ، وقلّةِ عددهمْ، فوالله ليوشكنَّ أنْ تسمعَ بالمرأةِ تخرجُ منَ القادسيّةِ على بعيرها حتّى تزورَ هذا البيتَ لا تخافُ».

فقلتُ فيما بيني وبينَ نفسي: فأينَ دعّارُ طيّءٍ، الّذينَ قدْ سعّروا البلادَ.

قال: «**ولعلّك إنّما يمنعك منْ دخولٍ فيهِ أنّك ترى أنَّ الملكَ والسّلطانَ في غيرهمْ، وايمُ الله ليوشكنَّ أنْ تسمعَ بالقصورِ البيضِ منْ أرضِ بابلَ قدْ فتحتْ عليهمْ**».

قالَ: فأسلمتُ، فرأيتُ وجههُ استبشرَ. [وفي رواية: فرأيتُ وجههُ تبسّطَ فرحاً].

قالَ عديٌّ: فرأيتُ الظّعينةَ ترتحلُ منَ الحيرةِ حتّى تطوفَ بالكعبةِ لا تخافُ إلّا اللهَ، وكنتُ فيمنْ افتتحَ كنوزَ كسرى بنِ هرمزَ، ولئنْ طالتْ بكمْ حياةٌ لترونَّ ما قالَ النّبيُّ أبو القاسمِ ﷺ، وايمُ الله لتكوننّ الثّالثةُ: ليفيضنَّ المالُ حتّى لا يوجدَ منْ يأخذهُ[1].

وكان ﷺ يظهرُ لهم الاحترامَ، والتقديرَ، والاهتمامَ، والحفاوةَ.

عنِ المسورِ بنِ مخرمةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ أباهُ مخرمةَ قالَ لهُ: يا بنيِّ إنّهُ بلغني أنَّ النّبيَّ ﷺ قدمتْ عليهِ أقبيةٌ[2]، فهوَ يقسمها، فاذهبْ بنا إليهِ.

فذهبنا، فوجدنا النّبيَّ ﷺ في منزلهِ.

فقالَ لي: يا بنيِّ ادعُ لي النّبيَّ ﷺ.

فأعظمتُ ذلكَ، فقلتُ: أدعو لكَ رسولَ الله ﷺ!

---

(١) السيرة النبوية [٢/ ٥٨٠] لابن هشام، وقال ابن كثير: هكذا أورد ابن إسحاق رَحِمَهُ اللَّهُ هذا السياق بلا إسناد، وله شواهد من وجوه أخرَ.

ورواها الطبراني في المعجم الأوسط [٦ / ٣٥٩] مسندةً، وبعضها في مسند أحمد [١٩٤٠٠]، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد [٦/ ٣٠٦]: «رجاله رجال الصحيح غير عباد بن حبيش وهو ثقة»، وصححه أحمد شاكر، وقال السهيلي: «وحديث إسلام عدي بن حاتم صحيح عجيب». الروض الأنف [٧/ ٤٧٧].

(٢) جمع قباء، وهو ثوبٌ يلبسُ فوق الثّيابِ، أو القميص، ويتمنطقُ عليهِ. المعجم الوسيط [٢/ ٧١٣]

فقالَ: يا بنيِّ، إنّهُ ليسَ بجبّارٍ.

فدعوتهُ، فخرجَ، وعليهِ قباءٌ منْ ديباجٍ مزرّرٌ بالذّهبِ.

فقالَ: «**يا مخرمةُ هذا خبأناهُ لكَ**» فأعطاهُ إيّاهُ[١].

(**وعليهِ قباءٌ**) قال ابن حجر: «ظاهرهُ: استعمالُ الحريرِ. قيلَ: ويجوزُ أنْ يكونَ قبلَ النّهيِ، ويحتملُ أنْ يكونَ المرادُ أنّهُ نشرهُ على أكتافهِ؛ ليراهُ مخرمةُ كلّهُ، ولمْ يقصدْ لبسهُ.

قلتُ: ولا يتعيّنُ كونهُ على أكتافهِ، بلْ يكفي أنْ يكونَ منشوراً على يديهِ، فيكونُ قولهُ (عليهِ) منْ إطلاقِ الكلِّ على البعضِ، وقدْ وقعَ في روايةِ حاتمٍ، فخرجَ ومعهُ قباءٌ، وهوَ يريهِ محاسنهُ»[٢].

وقوله ﷺ لمخرمةَ: «**خبّأت هذا لك**» هوَ منْ باب التّألّفِ[٣].

قال ابن بطال: «المدارة من أخلاق المؤمنين، وهى خفضُ الجناحِ للناسِ، ولينُ الكلمةِ، وتركُ الإغلاظِ لهم في القولِ، وذلك من أقوى أسبابِ الألفة، وسلِّ السخيمة»[٤].

وفي الحديث: تواضع النّبيّ ﷺ، وحسن تلطّفه بأصحابهِ[٥].

ومن ذلك: حسنُ إنصاته واستماعه لحديثهم.

عنْ محمّدِ بنِ كعبٍ القرظيّ قالَ: حدّثت أنّ عتبةَ بنَ ربيعةَ وكانَ سيّداً قالَ يوماً وهوَ جالسٌ في نادي قريشٍ ورسولُ الله ﷺ جالسٌ في المسجدِ وحدهُ: يا معشرَ قريشٍ، ألا أقومُ إلى محمّدٍ فأكلّمهُ، وأعرضَ عليهِ أموراً لعلّهُ يقبلُ بعضها، فنعطيهِ أيّها شاءَ، ويكفُّ عنّا؟

وذلكَ حينَ أسلمَ حمزةُ، ورأوا أصحابَ رسولِ الله ﷺ يزيدونَ ويكثرونَ.

---

(١) رواه البخاري [٣٨٦٥]، ومسلم [١٠٥٨].

(٢) فتح الباري [١٠/ ٢٧٠].

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم [٧/ ١٤٨].

(٤) شرح صحيح البخارى لابن بطال [٩/ ٣٠٥].

(٥) فتح الباري [١٠/ ٣١٥].

فقالوا: بلى يا أبا الوليدِ، قمْ إليهِ فكلّمهُ.

فقامَ إليهِ عتبةُ حتّى جلسَ إلى رسولِ الله ﷺ.

فقالَ: يا ابنَ أخي، إنّك منّا حيثُ قدْ علمتَ منَ السّطةِ في العشيرةِ[1]، والمكانِ في النّسبِ، وإنّك قدْ أتيتَ قومك بأمرٍ عظيمٍ، فرّقتَ بهِ جماعتهمْ، وسفّهتَ بهِ أحلامهمْ، وعبتَ بهِ آلهتهمْ ودينهمْ، وكفّرتَ بهِ منْ مضى منْ آبائهمْ.

فاسمعْ منّي أعرضُ عليك أموراً تنظرُ فيها؛ لعلّك تقبلُ منها بعضها.

فقالَ لهُ رسولُ الله ﷺ: «**قلْ يا أبا الوليدِ، أسمعْ**».

قالَ: يا ابنَ أخي إنْ كنتَ إنّما تريدُ بما جئتَ بهِ منْ هذا الأمرِ مالاً، جمعنا لك منْ أموالنا، حتّى تكونَ أكثرنا مالاً.

وإنْ كنتَ تريدُ بهِ شرفاً سوّدناك علينا، حتّى لا نقطعَ أمراً دونك.

وإنْ كنتَ تريدُ بهِ ملكاً ملّكناك علينا.

وإنْ كانَ هذا الّذي يأتيكَ رئيّاً تراهُ لا تستطيعُ ردّهُ عنْ نفسك، طلبنا لك الطّبَّ، وبذلنا فيهِ أموالنا حتّى نبرئكَ منهُ، فإنّهُ ربّما غلبَ التّابعُ على الرّجلِ حتّى يداوى منهُ.

حتّى إذا فرغَ عتبةُ ورسولُ الله ﷺ يستمعُ منهُ قالَ: «**أقدْ فرغت يا أبا الوليدِ؟**».

قالَ: نعمْ.

قالَ: «**فاسمعْ منّي**».

قالَ: أفعلُ.

فقالَ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿حم ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٢ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ۝٥ قُلْ إِنَّمَا

(١) أي: الشرف.

﴿أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾ [فصلت: ١-٦].

ثمّ مضى رسولُ الله ﷺ فيها يقرؤها عليهِ.

فلمّا سمعها منهُ عتبةُ أنصتَ لها، وألقى يديهِ خلفَ ظهرِهِ معتمداً عليهما، يسمعُ منهُ.

ثمّ انتهى رسولُ الله ﷺ إلى السّجدةِ منها، فسجدَ.

فقامَ عتبةُ إلى أصحابهِ، فقالَ بعضهمْ لبعضٍ: نحلفُ بالله لقدْ جاءكمْ أبو الوليدِ بغيرِ الوجهِ الّذي ذهبَ بهِ.

فلمّا جلسَ إليهمْ قالوا: ما وراءك يا أبا الوليدِ؟

قالَ: ورائي أنّي قدْ سمعتُ قولاً والله ما سمعت مثلهُ قطُّ، والله ما هوَ بالشّعرِ، ولا بالسّحرِ، ولا بالكهانةِ، يا معشرَ قريشٍ أطيعوني واجعلوها بي، وخلّوا بينَ هذا الرّجلِ وبينَ ما هوَ فيهِ فاعتزلوهُ؛ فوالله ليكوننَّ لقولهِ الّذي سمعتُ منهُ نبأٌ عظيمٌ، فإنْ تصبهُ العربُ فقدْ كفيتموهُ بغيركمْ، وإنْ يظهرْ على العربِ فملكهُ ملككمْ، وعزّهُ عزّكمْ، وكنتمْ أسعدَ النّاسِ بهِ.

قالوا: سحرك والله يا أبا الوليدِ بلسانهِ.

قالَ: هذا رأيي فيهِ، فاصنعوا ما بدا لكمْ[1].

وعنْ أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: بينما نحنُ جلوسٌ معَ النّبيِّ ﷺ في المسجدِ دخلَ رجلٌ على جملٍ، فأناخهُ في المسجدِ، ثمَّ عقلهُ.

ثمَّ قالَ لهمْ: أيّكمْ محمّدٌ؟ والنّبيُّ ﷺ متّكئٌ بينَ ظهرانيهمْ.

فقلنا: هذا الرّجلُ الأبيضُ المتّكئُ.

فقالَ لهُ الرّجلُ: يا ابنَ عبدِ المطّلبِ.

---

(١) رواه البيهقي في دلائل النبوة [٢ / ٢٠٤].

فقالَ لهُ النّبيُّ ﷺ: «**قدْ أجبتكَ**».

فقالَ الرّجلُ للنّبيِّ ﷺ: إنّي سائلكَ، فمشدّدٌ عليكَ في المسألةِ؛ فلا تجدْ عليَّ في نفسكَ.

فقالَ: «**سلْ عمّا بدا لكَ**».

فقالَ: أسألكَ بربّكَ، وربِّ منْ قبلكَ: آللهُ أرسلكَ إلى النّاسِ كلّهمْ؟

فقالَ: «**اللهمَّ نعمْ**».

قالَ: أنشدكَ باللهِ: آللهُ أمركَ أنْ نصلّيَ الصّلواتِ الخمسَ في اليومِ واللّيلةِ؟

قالَ: «**اللهمَّ نعمْ**».

قالَ: أنشدكَ باللهِ آللهُ أمركَ أنْ نصومَ هذا الشّهرَ منَ السّنةِ؟

قالَ: «**اللهمَّ نعمْ**».

قالَ: أنشدكَ باللهِ: آللهُ أمركَ أنْ تأخذَ هذهِ الصّدقةَ منْ أغنيائنا، فتقسمها على فقرائنا؟

فقالَ النّبيُّ ﷺ: «**اللهمَّ نعمْ**».

فقالَ الرّجلُ: آمنتُ بما جئتَ بهِ، وأنا رسولُ منْ ورائي منْ قومي، وأنا ضمامُ بنُ ثعلبةَ أخو بني سعدِ بنِ بكرٍ[١].

وكان يعتذرُ لهم، ويتحمّلُ منهم ما يصدر عنهم، بل دعا إلى التجاوز عن أخطائهم:

فحثَّ النبيُّ ﷺ على التجاوزِ عمن وقعَ في هفوةٍ من ذوي الهيئاتِ من المسلمينَ؛ لأنه كما قيل: لكل جوادٍ كبوةٌ، ولكل عالمٍ هفوةٌ، ولكل صارم نبوةٌ، وكما قال الشاعر:

ومنْ ذا الّذي ترضى سجاياهُ كلّها … كفى المرءَ نبلاً أنْ تعدَّ معايبهْ

فالتجاوز عن ذوي الهيئات منهجٌ نبويٌّ، عن عائشةَ رضي الله عنها قالت: قالَ رسولُ الله ﷺ: «**أقيلوا ذوي الهيئاتِ عثراتهمْ إلّا الحدودَ**»[٢].

---

(١) رواه البخاري [٦٣].

(٢) رواه أبو داود [٤٣٧٥]، وصححه الألباني في صحيح الجامع [١١٨٥].

«**أقيلوا**» أمر منَ الإقالة أيِ: اعفوا.

«**ذوي الهيئاتِ**»، أيْ: أصحابَ المروءاتِ، والخصالِ الحميدةِ. قال ابنُ الملكِ: الهيئةُ: الحالةُ الّتي يكونُ عليها الإنسانُ منَ الأخلاقِ المرضيّةِ.

«**عثراتهمْ**»، أيْ: زلّاتهمْ، وأرادَ منَ العثراتِ ما يتوجّهُ فيهِ التّعزيرُ؛ لإضاعةِ حقٍّ منْ حقوق الله.

«**إلّا الحدود**»، أيْ: إلّا ما يوجب إقامة الحدود[١].

قال ابنُ القيم: «والظاهرُ أنهم ذوو الأقدارِ بينَ الناسِ، من الجاهِ، والشرفِ، والسؤدد، فإن الله تعالى خصّهم بنوعِ تكريمٍ وتفضيلٍ على بني جنسهم، فمن كان منهم مستوراً مشهوراً بالخير حتى كبا به جواده... وأديلَ عليه شيطانه، فلا نسارعُ إلى تأنيبه، وعقوبته، بل تقال عثرته، ما لم يكن حدّاً من حدودِ الله، فإنه يتعيّنُ استيفاؤه من الشريفِ، كما يتعيّنُ أخذه من الوضيع»[٢].

«ومعنى الحديث: استحبابُ تركِ مؤاخذةِ ذي الهيئةِ إذا وقع في زلّةٍ، أو هفوةٍ لم تعهدْ عنه، إلا ما كان حدّاً من حدودِ الله تعالى، وبلغ الحاكمَ، فيجبُ إقامته»[٣].

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ سعدَ بنَ عبادةَ قالَ: يا رسولَ الله أرأيتَ الرّجلُ يجدُ معَ امرأتهِ رجلاً أيقتلهُ؟

فقالَ رسولُ الله ﷺ: «**لا**».

قالَ سعدٌ: بلى والّذي أكرمكَ بالحقِّ.

فقالَ رسولُ الله ﷺ: «**اسمعوا إلى ما يقولُ سيّدكمْ!**»[٤].

---

(١) عون المعبود [١٢/ ٢٥].

(٢) بدائع الفوائد [٣/ ٦٦١] بتصرف يسير.

(٣) فتاوى اللجنة الدائمة [٢٢/ ٥٦].

(٤) رواه البخاري [١٤٩٨]، ومسلم [١٤٩٨].

وفي رواية لمسلم قالَ سعدُ بنُ عبادةَ: يا رسولَ الله لوْ وجدتُ معَ أهلي رجلاً لمْ أمسّهُ حتّى آتيَ بأربعةِ شهداءَ؟

قالَ رسولُ الله ﷺ: «**نعمْ**».

قالَ: كلّا والّذي بعثكَ بالحقِّ إنْ كنتُ لأعاجلهُ بالسّيفِ قبلَ ذلكَ.

قالَ رسولُ الله ﷺ: «**اسمعوا إلى ما يقولُ سيّدكمْ! إنّهُ لغيورٌ، وأنا أغيرُ منهُ، والله أغيرُ منّي**».

قالَ القاري: «فيهِ: اعتذار منهُ ﷺ لسعدٍ، وأنَّ ما قالهُ سعد قالهُ لغيرتهِ»[1].

وقولـه: (كلّا والّذي بعثـك بالحقِّ إنْ كنت لأعاجلهُ بالسّـيفِ) قالَ المـاورديّ، وغيره: «ليـسَ قولـه هذا ردّا لقولِ النّبيِّ ﷺ، ولا مخالفةً منْ سـعدِ بنِ عبـادةِ لأمرهِ ﷺ، وإنّما معناهُ الإخبـارُ عـنْ حالةِ الإنسـانِ عند رؤيتـه الرّجلَ عند امرأته، واسـتيلاءِ الغضبِ عليـهِ، فإنّهُ حينئذٍ يعاجلهُ السّيفَ، وإنْ كانَ عاصياً»[2].

وعـنْ أبي الدّرداءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: كانتْ بينَ أبي بكرٍ، وعمرَ محاورةٌ، فأغضبَ أبو بكرٍ عمرَ، فانصرفَ عنهُ عمرُ مغضباً.

فاتّبعهُ أبو بكرٍ يسألهُ أنْ يستغفرَ لهُ، فلمْ يفعلْ، حتّى أغلقَ بابهُ في وجههِ.

قالَ أبو الدّرداءِ: كنتُ جالساً عندَ النّبيِّ ﷺ إذْ أقبلَ أبو بكرٍ آخذاً بطرفِ ثوبهِ حتّى أبدى عنْ ركبتهِ.

فقالَ النّبيُّ ﷺ: «**أمّا صاحبكمْ، فقدْ غامر**»[3].

فسـلّمَ، وقالَ: إنّي كانَ بيني، وبينَ ابنِ الخطّابِ شيءٌ، فأسرعتُ إليهِ، ثمَّ ندمتُ، فسـألتهُ أنْ يغفرَ لي، فأبى عليَّ، فأقبلتُ إليكَ.

---

(١) مرقاة المفاتيح [٥/ ٢١٦٣].

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم [١٠/ ١٣١].

(٣) أيْ: خاصم. النهاية [٣/ ٣٨٤].

فقالَ: «**يغفرُ الله لكَ يا أبا بكرٍ، يغفرُ الله لكَ يا أبا بكرٍ، يغفرُ الله لكَ يا أبا بكرٍ**»(١).

وكان يكرمهم ويأمر أصحابه بذلك:

عن جابرِ بنِ عبدِ الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: دخلَ جريرُ بنُ عبد الله البجلي [وكان سيّد قومه] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على رسولِ الله ﷺ وعندهُ أصحابه، فضنَّ الناسُ بمجالسهمْ، فلم يوسّعْ لهُ أحدٌ.

فأخذَ رسولُ الله ﷺ رداءه، فألقاه إليه، وقال: «**اجلسْ عليها**».

فتلقّاهُ جريرٌ بنحره ووجهه، فقبّلهُ، ووضعه على عينيهِ، وقال: أكرمك الله كما أكرمتني، ثمَّ وضعه على ظهرِ رسول الله ﷺ.

فقال رسول الله ﷺ: «**منْ كانَ يؤمنُ بالله واليومِ الآخرِ، فإذا أتاهُ كريمُ قومٍ؛ فليكرمهُ**»(٢).

وعنِ ابنِ عمرَ قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: «**إذا أتاكمْ كريمُ قومٍ فأكرموهُ**»(٣).

وكان يحسنُ إليهم حتى وإن كانوا في الأسرِ حفظاً لمكانتهم وطمعاً في إسلامهم:

عن أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: بعثَ رسولُ الله ﷺ خيلاً قبلَ نجدٍ، فجاءتْ برجلٍ منْ بني حنيفةَ لا يشعرونَ منْ هوَ حتّى أتوا بهِ رسولَ الله ﷺ فقالَ: «**أتدرونَ منْ أخذتمْ؟ هذا ثمامةُ بنُ أثالٍ الحنفيُّ** [وكان سيّد أهلِ اليمامةِ] أحسنوا إسارهُ).

فربطوهُ بساريةٍ منْ سواري المسجدِ.

ورجعَ رسولُ الله ﷺ إلى أهلهِ فقالَ: «**اجمعوا ما كانَ عندكمْ منْ طعامٍ، فابعثوا بهِ إليهِ، وأمرَ بلقحتهِ**(٤) **أنْ يغدى عليهِ بها ويراحُ**».

فجعلَ لا يقعُ منْ ثمامةَ موقعاً.

---

(١) رواه البخاري [٣٦٦١]، وقد سبق.

(٢) رواه الحاكم في المستدرك [٧٧٩١]، وقال: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه بهذا السياق، وقال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء: وإسناده جيد.

(٣) رواه ابن ماجة [٣٧١٢] وحسنه الألباني بالشواهد في الصحيحة [١٢٠٥].

(٤) الناقة ذات اللبن.

فخرجَ إليهِ رسولُ الله ﷺ، فقالَ: «**ماذا عندكَ يا ثمامةُ؟**».

فقالَ: عندي يا محمّدُ خيرٌ: إنْ تقتلْ تقتلْ ذا دمٍ، وإنْ تنعمْ تنعمْ على شاكرٍ، وإنْ كنتَ تريدُ المالَ؛ فسلْ تعطَ منهُ ما شئتَ.

فتركهُ رسولُ الله ﷺ حتّى كانَ بعدَ الغدِ، فقالَ: ما عندكَ يا ثمامةُ.

فأعاد عليه مقالته.

فتركهُ رسولُ الله ﷺ، حتّى كانَ منَ الغدِ، فقالَ له كما قال له في اليومِ الأوّلِ، فأعاد عليه ثمامةُ مقالته.

فقالَ رسولُ الله ﷺ: «**أطلقوا ثمامةَ**».

فانطلقَ إلى نخلٍ قريبٍ منَ المسجدِ، فاغتسلَ، ثمَّ دخلَ المسجدَ، فقالَ: أشهدُ أنْ لا إلهَ إلّا الله، وأشهدُ أنَّ محمّداً عبدهُ ورسولهُ.

يا محمّدُ، والله ما كانَ على الأرضِ وجهٌ أبغضَ إليَّ منْ وجهكَ، فقدْ أصبحَ وجهكَ أحبَّ الوجوهِ إليَّ، والله ما كانَ منْ دينٍ أبغضَ إليَّ منْ دينكَ، فأصبحَ دينكَ أحبَّ الدّينِ إليَّ، والله ما كانَ منْ بلدٍ أبغضُ إليَّ منْ بلدكَ، فأصبحَ بلدكَ أحبَّ البلادِ إليَّ.

وإنَّ خيلكَ أخذتني، وأنا أريدُ العمرةَ، فماذا ترى.

فبشّرهُ رسولُ الله ﷺ، وأمرهُ أنْ يعتمرَ.

فلمّا قدمَ مكّةَ قالَ لهُ قائلٌ: صبوتَ.

قالَ: لا، ولكنْ أسلمتُ معَ محمّدٍ رسولِ الله ﷺ، ولا والله لا يأتيكمْ منْ اليمامةِ حبّةُ حنطةٍ حتّى يأذنَ فيها النّبيُّ ﷺ[1].

من فوائد الحديث:

فيهِ: الاغتسالُ عندَ الإسلامِ.

---

(١) رواه البخاري [٤٣٧٢]، ومسلم [١٧٦٤]، وما بين المعقوفتين زيادة من السيرة النبوية [٢/ ٦٣٨] لابن هشام.

وفيهِ: أنَّ الإحسانَ يزيلُ البغضَ، ويثبّتُ الحبَّ.

وفيهِ: أنَّ الكافرَ إذا أرادَ عملَ خيرٍ، ثمَّ أسلمَ شرعَ لهُ أنْ يستمرَّ في عملِ ذلكَ الخيرِ.

وفيهِ: الملاطفةُ بمنْ يرجى إسلامهُ منَ الأسارى إذا كانَ في ذلكَ مصلحةٌ للإسلامِ، ولا سيّما منْ يتبعهُ على إسلامهِ العددُ الكثيرُ[١].

فلما أسلم حسنَ إسلامهُ، ونفعَ الله بهِ الإسلامَ كثيراً، وقامَ بعدَ وفاةِ رسولِ الله ﷺ مقاماً حميداً حينَ ارتدّتِ اليمامةُ معَ مسيلمةَ، وذلكَ أنّهُ قامَ فيهمْ خطيباً، وقالَ:

«يا بني حنيفةَ! أينَ عزبتْ عقولكمْ، بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ [غافر: ١-٣]، أينَ هذا منْ: يا ضفدعُ يا ضفدعين، نقّي كما تنقّينَ، نصفكِ في الماءِ، ونصفكِ في الطّينِ، لا الشّرابَ تكدّرينَ، ولا الماءَ تمنعينَ... لنا نصفُ الأرض، ولقريشٍ نصفها. ولكن قريشاً قوم يعتدون...الخ ممّا كانَ يهذي بهِ مسيلمةَ».

فأطاعهُ معهمْ ثلاثةَ آلافٍ، وانحازوا إلى المسلمينَ، ففتَّ ذلكَ في أعضادِ مسيلمة[٢].

وكان ﷺ لا يردّهم عن لقائه:

عنْ جريرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: ما حجبني النّبيُّ ﷺ منذُ أسلمتُ، ولا رآني إلّا تبسّمَ في وجهي. ولقدْ شكوتُ إليهِ أنّي لا أثبتُ على الخيلِ، فضربَ بيدهِ في صدري، وقالَ: «**اللهمَّ ثبّتهُ واجعلهُ هادياً مهديّاً**»[٣].

من فوائد الحديث:

فيهِ: أن الرجلَ الوجيهَ في قومه له حرمةٌ، ومكانةٌ على من هو دونه؛ لأن جريراً كان سيّدَ قومهِ.

---

(١) فتح الباري [٨/ ٨٩].

(٢) الروض الأنف [٤ / ٤١٨]

(٣) رواه البخاري [٣٠٣٦]، ومسلم [٢٤٧٥].

وفيـهِ: أن لقـاءَ الناسِ بالتبسّـم، وطلاقة الوجهِ من أخـلاقِ النبوّةِ، وهو منـافٍ للتكبّر، وجالبٌ للمودّةِ.

وفيـهِ: فضلُ الفروسـيّةِ، وإحكام ركوب الخيـلِ، وأن ذلكَ ممّا ينبغـى أن يتعلّمه الرجلُ الشريفُ والرئيسُ.

وفيهِ: أنه لا بأسَ للعالمِ والإمامِ إذا أشـارَ إلى إنسـان في مخاطبته، أو غيرها أن يضعَ عليه يدهُ، ويضربَ بعضَ جسده، وذلك من التواضع، وفيه استمالةُ النفوس.

وفيـهِ: بركـة دعـوة النبـي ﷺ؛ لأنه قد جـاءَ في هذا الحديث أنه ما سـقطَ بعـد ذلكَ من الخيلِ[١].

وكان يثني على صفاتِ الخير التي فيهم:

قـالَ جريرٌ: لمّا دنوتُ منَ المدينةِ أنختُ راحلتي، ثمَّ حللتُ عيبتي[٢]، ثمَّ لبسـتُ حلّتي، ثمَّ دخلتُ.

فإذا رسولُ الله ﷺ يخطبُ، فرماني النّاسُ بالحدقِ[٣].

فقلتُ لجليسي: يا عبدَ الله ذكرني رسولُ الله ﷺ؟

قالَ: نعمْ ذكركَ آنفاً بأحسنِ ذكرٍ.

وقـالَ: «**يدخـلُ عليكمْ منْ هـذا البابِ، أوْ منْ هـذا الفجِّ منْ خيرِ ذي يمـنٍ، إلّا أنَّ على وجههِ مسحةَ ملكٍ**»[٤].

قالَ جريرٌ: فحمدتُ الله عَزَّوَجَلَّ على ما أبلاني[٥].

(١) شرح ابن بطال على صحيح البخاري [٥/ ١٩٤].

(٢) مستودع الثياب والصندوق الذي يحفظ فيه كل شيء نفيس.

(٣) التحديق: شدة النظر.

(٤) أثر من الجمال؛ لأنهم يصفون الملائكة بالجمال، وكان جرير سيداً مطاعاً مليحاً طوالا بديع الجمال. عمدة القاري [٢/ ١٨٦].

(٥) رواه أحمد [١٨٦٩٨]، وصححه الألباني في الصحيحة [٣١٩٣].

قال ابن إسحاق: وقدم على رسول الله ﷺ وفدُ طيّئ، وفيهم زيدُ الخيل وهو سيّدهم، فلما انتهوا إليه كلّمهم، وعرضَ عليهم الإسلامَ، فأسلموا، وحسنَ إسلامهم.

وقال رسول الله ﷺ: «**ما ذكرَ لي رجلٌ منَ العربِ بفضلٍ ثمَّ جاءني إلّا رأيتهُ دونَ ما يقالُ فيهِ إلّا زيدَ الخيلِ فإنّهُ لمْ يبلغْ كلَّ ما فيهِ**».

ثم سمّاه زيد الخير، وقطع له فيداً[1] وأرضين معه، وكتبَ له بذلك.

فخرج من عندِ رسول الله ﷺ راجعاً إلى قومه، فقال رسول الله ﷺ: «**إن ينجُ زيدٌ من حمّى المدينةِ**».

فلما انتهى إلى ماءٍ من مياهِ نجدٍ يقالُ له: فردة، أصابتهُ الحمّى بها، فماتَ، فلما أحسَّ بالموت أنشدَ:

أمرتحلٌ قومي المشارقَ غدوةً ... وأتركُ في بيتٍ بفردةِ منجدِ
ألا ربَّ يومٍ لوْ مرضتُ لعادني ... عوائدُ منْ لمْ يبرَ منهنَّ يجهدِ

وقالَ لأشجِّ عبدِ القيسِ -وكانَ وافدَ قبيلة عبدِ القيسِ وقائدهمْ ورئيسهم-: «**إنَّ فيكَ خصلتينِ يحبّهما الله: الحلمُ، والأناةُ**»[2].

قال النووي: «أمّا الحلمُ فهو العقلُ، وأما الأناةُ فهي التثبّتُ، وترك العجلة.

وسببُ قولِ النّبيِّ ﷺ ذلكَ لهُ: ما جاءَ أنَّ الوفدِ لمّا وصلوا إلى المدينةِ بادروا إلى النّبيِّ ﷺ، وأقامَ الأشجُّ عندَ رحالهمْ فجمعها، وعقلَ ناقتهُ، ولبسَ أحسنَ ثيابهِ، ثمَّ أقبلَ إلى النّبيِّ ﷺ.

فقرّبهُ النّبيُّ ﷺ وأجلسهُ إلى جانبهِ، وقالَ لهُ: «إنَّ فيكَ خصلتينِ يحبّهما الله: الحلمُ والأناةُ»[3].

---

(١) اسم مكان بشرقي سلمى أحد جبال طيئ، وهو الذي ينسبُ إليه حمى فيدٍ.

(٢) رواه مسلم [١٧] عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم [١/ ١٨٩].

وربّما دخل النبيُّ ﷺ في جوار بعضهم وحمايته:

فإنّ رسولَ الله ﷺ لمّا انصرفَ عنْ أهلِ الطّائفِ، ولمْ يجيبوهُ إلى ما دعاهمْ إليهِ منْ تصديقهِ، ونصرتهِ صارَ إلى حراءٍ.

ثمّ بعثَ إلى الأخنسِ بن شريقٍ؛ ليجيرهُ، فقالَ: أنا حليفٌ، والحليفُ لا يجيرُ.

فبعثَ إلى سهيلِ بنِ عمرٍو، فقالَ: إنّ بني عامر لا تجيرُ على بني كعبٍ.

فبعثَ إلى المطعمِ بنِ عديٍّ، فأجابهُ إلى ذلكَ.

فذهبَ إليه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فباتَ عنده تلكَ الليلةَ، فلما أصبحَ خرجَ معه هو وبنوهُ ستّةً، أو سبعةً متقلّدي السيوفِ جميعاً، فدخلوا المسجدَ.

وقال لرسولِ الله ﷺ: طفْ. واحتبوا بحمائلِ سيوفهم في المطافِ.

فأقبل أبو سفيان إلى مطعمٍ، فقال: أمجيرٌ، أو تابعٌ؟

قال: لا، بل مجيرٌ.

قال: إذاً لا تخفرُ.

فجلسَ معه حتى قضى رسول الله ﷺ طوافه، فلما انصرفَ انصرفوا معه، وذهب أبو سفيان إلى مجلسه.

قال: فمكثَ أياماً، ثم أذنَ له في الهجرةِ.

فلمّا هاجرَ رسول الله ﷺ إلى المدينةِ توفّيَ المطعمُ بنُ عديٍّ بعده بيسيرٍ، فقال حسّانُ بنُ ثابتٍ: والله لأرثينّه.

فقال فيما قال:

فلوْ كانَ مجدٌ يخلدُ اليومَ واحداً ... منَ الناسِ أبقى مجدهُ اليومَ مطعما

أجرتَ رسولَ الله منهم، فأصبحوا ... عبادكَ ما لبّى ملبٍّ، وأحرما

فلو سئلتْ عنهُ معدٌّ بأسرها وقحطانُ، أو باقي بقيّةِ جرهما
لقالوا: هوَ الموفي بخفرةِ جارهِ وذمّتهِ يوماً إذا ما تذمّما
فما تطلعُ الشمسُ المنيرةُ فوقهم على مثلهِ منهم أعزَّ، وأكرما

ولهذا قال النبيُّ ﷺ يوم بدرٍ عن الأسارى: «**لوْ كانَ المطعمُ بنُ عديٍّ حيّاً، ثمَّ كلّمني في هؤلاءِ النّتنى، لتركتهمْ لهُ**»(١).

وإذا دعاه بعضهم إلى طعامٍ أجاب دعوته:

عنْ أنسِ بن مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّ النّبيَّ ﷺ جاءَ إلى سعدِ بنِ عبادةَ، فجاءَ بخبزٍ وزيتٍ، فأكلَ، ثمَّ قالَ النّبيُّ ﷺ: «**أفطرَ عندكمْ الصّائمونَ، وأكلَ طعامكمْ الأبرارُ، وصلّتْ عليكمْ الملائكةُ**»(٢).

«**أفطرَ عندكمْ الصّائمونَ**» خبرٌ بمعنى الدّعاءِ بالخيرِ والبركة، لأنَّ أفعالَ الصائمينَ تدلُّ على اتّساعِ الحالِ، وكثرةِ الخيرِ إذ من عجزَ عن نفسه، فهو عن غيره أعجزُ.

«**وأكلَ طعامكمْ الأبرارُ**» صائمين، ومفطرين، فمفادُ هذه الجملةِ أعمُّ ممّا قبلها.

«**وصلّتْ عليكمْ الملائكةُ**» أي: استغفرتْ لكم.

وفيهِ: أنه يندبُ لمن أفطر عنده صائمٌ أن يدعوَ له بذلك بناءً على أنَّ الجملةَ دعائيّةٌ، وهو أقربُ من جعلها خبريّةً(٣).

وكان النبيُّ ﷺ يزورهم، ويأكلُ عندهم:

عنْ قيسِ بنِ سعدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قالَ: زارنا رسولُ الله ﷺ في منزلنا.

فقالَ: «**السّلامُ عليكمْ ورحمةُ الله**».

فردَّ سعدٌ ردّاً خفيّاً. [أيْ: بحيثُ لا يسمع رسول الله ﷺ]

---

(١) رواه البخاري [٣١٣٩].

(٢) رواه أبو داود [٣٨٥٤]، وصححه الألباني في صحيح الجامع [١٢٢٦].

(٣) فيض القدير [٢/ ٥٤].

قالَ قيسٌ: فقلتُ: ألا تأذنُ لرسولِ الله ﷺ.

فقالَ: ذرهُ يكثرُ علينا منَ السّلامِ.

فقالَ رسولُ الله ﷺ: «**السّلامُ عليكمْ ورحمةُ الله**».

فردَّ سعدُ ردّاً خفيّاً.

ثمَّ قالَ رسولُ الله ﷺ: «**السّلامُ عليكمْ ورحمةُ الله**».

فرجعَ رسولُ الله ﷺ، واتّبعهُ سعدٌ، فقالَ: يا رسولَ الله، قدْ كنتُ أسمعُ تسليمكَ، وأردُّ عليكَ ردّاً خفيّاً؛ لتكثرَ علينا منَ السّلام.

فانصرفَ معهُ رسولُ الله ﷺ، فأمرَ لهُ سعدٌ بغسلٍ[1] فوضعَ فاغتسلَ، ثمَّ ناولهُ ملحفةً مصبوغةً بزعفرانٍ وورسٍ، فاشتملَ بها[2].

ثمَّ رفعَ رسولُ الله ﷺ يديهِ، وهوَ يقولُ: «**اللهمَّ اجعلْ صلواتكَ، ورحمتكَ على آلِ سعدِ بنِ عبادةَ**».

ثمَّ أصابَ منَ الطّعامِ، فلمّا أرادَ الانصرافَ قرّبَ إليهِ سعدٌ حماراً قدْ وطّأَ عليهِ بقطيفةٍ، فركبَ رسولُ الله ﷺ.

فقالَ سعدٌ: يا قيسُ! اصحبْ رسولَ الله ﷺ.

قالَ قيسٌ: فقالَ رسولُ الله ﷺ: «**اركبْ**».

فأبيتُ، ثمَّ قالَ: «**إمّا أنْ تركبَ، وإمّا أنْ تنصرفَ**».

قالَ: فانصرفتُ[3].

---

(١) ما يغسل بهِ منَ الخطميّ وغيره.

(٢) الملحفة: اللباس الذي فوق سائر اللباس من دثار البرد ونحوه، وكل شيء تغطيت به فقد التحفت به، والورس: نبت أصفر يصبغ به.

(٣) رواه أحمد [١٥٠٥٠]، وأبو داود [٥١٨٥]، وقال ابن حجر في الفتح [١١/ ١٧٠]: "سنده جيد"، وصحّح إسناده ابنُ الملقن في البدر المنير [٢/ ٢٥٦]، وقال ابن كثير في تفسيره [٦/ ٣٧]: جيد قوي، وضعفه الألباني في ضعيف أبي داود [٥١٨٥].

وكان ﷺ يمازحهم:

عنْ أسيدِ بنِ حضيرٍ - وكان أسيد من عقلاء الأشراف، وذوي الرأي، وأحد النقباء الاثني عشر ليلة العقبة - قالَ:

بينما هوَ يحدّثُ القومَ، وكانَ فيهِ مزاحٌ، بينا يضحكهمْ، فطعنهُ النّبيُّ ﷺ في خاصرتهِ بعودٍ.

فقالَ: أصبرني[١].

فقالَ: «**اصطبرْ**».

قالَ: إنَّ عليكَ قميصاً، وليسَ عليَّ قميصٌ.

فرفعَ النّبيُّ ﷺ عنْ قميصهِ، فاحتضنهُ، وجعلَ يقبّلُ كشحهُ[٢]، وقالَ: إنّما أردتُ هذا يا رسولَ الله[٣].

ويهتمُّ بمرضاهم على وجه الخصوص، ويكثرُ زيارتهم:

عنْ عائشةَ رضي الله عنها قالتْ: أصيبَ سعدٌ بن معاذ [سيّد الأوس] يومَ الخندقِ، رماهُ رجلٌ منْ قريشٍ يقالُ لهُ حبّانُ بنُ العرقةِ.

فضربَ النّبيُّ ﷺ له خيمةً في المسجدِ؛ **ليعودهُ منْ قريبٍ**[٤].

قالَ أبو بكرِ بنُ العربيِّ: «تكرارُ العيادةِ سنّةٌ؛ لما كانَ النّبيُّ ﷺ يفعلُ بسعدِ بنِ معاذٍ حينَ ضربَ لهُ خيمةٍ في المسجدِ؛ ليعودهُ منْ قريبٍ»[٥].

وكان يقوم على مداواته: عنْ جابرِ بن عبد الله رضي الله عنهما أنّهُ قالَ: رميَ يومَ الأحزابِ

---

(١) أيْ: أقدرني، ومكّنّي منِ استيفاء القصاص حتّى أطعنَ في خاصرتك كما طعنت في خاصرتي.

(٢) هوَ ما بين الخاصرة إلى الضّلع الأقصر منْ أضلاع الجنب. مرقاة المفاتيح [٧/ ٢٩٦٨]

(٣) رواه أبو داود [٥٢٢٤]، وصححه الألباني.

(٤) رواه البخاري [٤٦٣]، ومسلم [١٧٦٩].

(٥) تحفة الأحوذي [٤/ ٣٨].

سعدُ بنُ معاذٍ، فقطعوا أكحلهُ[١]، فحسمهُ رسولُ الله ﷺ بالنّارِ، فانتفختْ يدهُ، فحسمهُ، فانتفختْ يدهُ، فحسمهُ أخرى فانتفختْ يدهُ، فنزفهُ. فلمّا رأى ذلكَ قالَ: «**اللهمَّ لا تخرجْ نفسي حتّى تقرَّ عيني منْ بني قريظةَ**».

فاستمسكَ عرقهُ، فما قطرَ قطرةً حتّى نزلوا على حكمِ سعدٍ... فلمّا فرغَ منْ أمرهم انفتقَ عرقهُ فماتَ[٢].

وكذلك كان يفعل مع سيّد الخزرج: سعد بن عبادة.

عنْ عبدِ الله بنِ عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنّهُ قالَ: كنّا جلوساً معَ رسولِ الله ﷺ إذْ جاءهُ رجلٌ منَ الأنصارِ، فسلّمَ عليهِ، ثمَّ أدبرَ الأنصاريُّ.

فقالَ رسولُ الله ﷺ: «**يا أخا الأنصارِ، كيفَ أخي سعدُ بنُ عبادةَ؟**».

فقالَ: صالحٌ.

فقالَ رسولُ الله ﷺ: «**منْ يعودهُ منكمْ؟**».

فقامَ، وقمنا معهُ، ونحنُ بضعةَ عشرَ، ما علينا نعالٌ، ولا خفافٌ، ولا قلانسُ، ولا قمصٌ، نمشي في تلكَ السّباخِ[٣] حتّى جئناهُ.

فاستأخرَ قومهُ[٤] منْ حولهِ حتّى دنا رسولُ الله ﷺ، وأصحابهُ الّذينَ معهُ.

فقالَ ﷺ: «**قدْ قضى؟**»[٥].

قالوا: لا يا رسولَ الله.

---

(١) الأكحلُ: عرق في وسطِ الذّراعِ يكثرُ فصدهُ. النهاية [٤/ ١٥٤]

(٢) رواه أحمد [١٤٣٥٩]، والترمذي [١٥٨٢]، وصححه الألباني في الإرواء [١٢١٣].

(٣) الأرض السبخة: هي التي يعلوها الملوحة، ولا تكاد تنبت. النهاية [٢/ ٣٣٣]

(٤) استأخر قومه إكراماً للوافد، وإنزالًا للناس منازلهم، وليتأنس بهم المريض، ويذهب عنه بعض الكلال الذي يحصل له من طول ملازمة من عنده.
دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين [٤/ ٤٦٤]

(٥) فيه معنى الاستفهام، أي: أقد خرج من الدنيا، ظنَّ أنه قد مات، فسأل عن ذلك. عمدة القاري [٨/ ١٠٤].

فبكى النّبيُّ ﷺ، فلمّا رأى القومُ بكاءَ النّبيِّ ﷺ بكوا.

فقالَ: «**ألا تسمعونَ، إنَّ الله لا يعذّبُ بدمعِ العينِ، ولا بحزنِ القلبِ، ولكنْ يعذّبُ بهذا -وأشارَ إلى لسانهِ- أوْ يرحمُ**»(١).

من فوائد الحديث:

فيهِ: السؤالُ عنِ المريضِ.

فيهِ: استحبابُ عيادةِ المريضِ.

وفيهِ: عيادةُ الفاضلِ للمفضولِ.

وفيهِ: عيادةُ الإمامِ والقاضي والعالمِ أتباعهُ.

وفيهِ: عيادةُ الإمامِ والعالمِ المريضَ معَ أصحابه.

وفيهِ: ما كان عليه الصحابةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من الزّهدِ في الدنيا، والتقلّل منها، واطّراحِ فضولها، وعدمِ الاهتمامِ بفاخرِ اللباسِ، ونحوه.

وفيهِ: جوازُ المشيِ حافياً(٢).

وكان النبيُّ ﷺ يشاورُ ذوي الهيئاتِ، ويأخذ بمشورتهم:

ففي بدرٍ طلبَ مشورةَ سادةِ الأنصارِ:

عنْ أنسِ بن مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسولَ الله ﷺ شاورَ حينَ بلغهُ إقبالُ أبي سفيانَ.

فتكلّمَ أبو بكرٍ، فأعرضَ عنهُ.

ثمَّ تكلّمَ عمرُ، فأعرضَ عنهُ.

فقامَ سعدُ بنُ عبادةَ فقالَ: إيّانا تريدُ يا رسولَ الله؟ والّذي نفسي بيدهِ لوْ أمرتنا أنْ

---

(١) رواه البخاري [١٣٠٤] ومسلم [٩٢٤].

(٢) ينظر: فتح الباري [٣/ ١٧٦]، شرح النووي على صحيح مسلم [٦/ ٢٢٧].

نخيضها البحرَ؛ لأخضناها، ولوْ أمرتنا أنْ نضربَ أكبادها إلى بركِ الغمادِ[١]؛ لفعلنا.

قالَ: فندبَ رسولُ الله ﷺ النّاسَ، فانطلقوا حتّى نزلوا بدراً[٢].

فسرَّ رسولُ الله ﷺ بقول سعدٍ، ونشّطهُ ذلك.

قالَ العلماء: إنّما قصدَ ﷺ اختبار الأنصار؛ لأنّهُ لمْ يكنْ بايعهمْ على أنْ يخرجوا معهُ للقتالِ وطلب العدوِّ، وإنّما بايعهمْ على أنْ يمنعوهُ ممّنْ يقصدهُ، فلمّا عرضَ الخروجَ لعيرِ أبي سفيان أرادَ أنْ يعلمَ أنّهمْ يوافقونَ على ذلكَ، فأجابوهُ أحسنَ جوابٍ بالموافقةِ التّامّة في هذهِ المرّة، وغيرها.

وفيهِ: استشارةُ الأصحابِ، وأهلِ الرّأيِ، والخبرة[٣].

وفي يومِ الخندقِ أرسلَ رسولُ الله ﷺ إلى سعدِ بن معاذٍ، وسعدِ بنِ عبادةَ يشاورهما فيما أراد أن يعطيهُ يومئذٍ عيينةَ بنَ حصنٍ من تمرِ المدينةِ، وذلك بعدَ أن جاءتْ قريشٌ في عشرةِ آلافٍ، وجاء عيينةُ بن حصن في غطفانَ، ومنْ معهمْ، وتوجّهَ حييُّ بن أخطبَ إلى بني قريظةَ، فلمْ يزلْ بهمْ حتّى غدروا، وبلغَ المسلمينَ غدرهمْ، فاشتدَّ بهمُ البلاءُ.

فأرادَ النّبيُّ ﷺ أنْ يعطيَ عيينةَ بنَ حصنٍ، ومنْ معهُ ثلثَ ثمارِ المدينةِ؛ لينصرفَ بمنْ معهُ منْ غطفانَ، ويخذّلَ الأحزابَ.

فأرسلَ رسولُ الله ﷺ إلى سعدِ بنِ معاذ، وسعدِ بنِ عبادةَ دونَ سائرِ الأنصارِ؛ لأنهما كانا سيّديْ قومهما، فكان سعدُ بنُ معاذٍ سيّداً للأوسِ، وكان سعدُ بن عبادةَ سيّداً للخرزج، فشاورهما في ذلكَ.

قال ابنُ القيّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولمّا طالتْ هذهِ الحالُ على المسلمينَ - أي: حصارُ المسلمين يومَ الخندقِ- أرادَ رسولُ الله ﷺ أنْ يصالحَ عيينةَ بنَ حصنٍ، والحارثَ بنَ عوفٍ رئيسيْ غطفانَ على ثلثِ ثمارِ المدينةِ، وينصرفا بقومهما، وجرتِ المراوضةُ على ذلكَ.

---

(١) هوَ اسمُ موضعٍ باليمنِ. وقيلَ هوَ موضعٌ وراءَ مكّةَ بخمس ليالٍ. النهاية [١/ ١٢١].

(٢) رواه مسلم [١٧٧٩].

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم [١٢/ ١٢٤].

فاستشارَ السّعدينِ في ذلكَ، فقالا: يا رسولَ الله إنْ كانَ الله أمركَ بهذا، فسمعاً وطاعةً، وإنْ كانَ شيئاً تصنعهُ لنا، فلا حاجةَ لنا فيهِ.

لقدْ كنّا نحنُ وهؤلاءِ القومِ على الشّركِ بالله، وعبادةِ الأوثانِ، وهمْ لا يطمعونَ أنْ يأكلوا منها ثمرةً إلّا قرًى، أوْ بيعاً، فحينَ أكرمنا اللهَ بالإسلامِ، وهدانا لهُ، وأعزّنا بك نعطيهمْ أموالنا؟

والله لا نعطيهمْ إلّا السّيفَ.

فصوّبَ رأيهما، وقالَ: «**إنّما هوَ شيءٌ أصنعهُ لكمْ، لمّا رأيتُ العربَ قدْ رمتكمْ عنْ قوسٍ واحدةٍ**»[1].

وكذلك فعلَ أميرُ المؤمنين عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

عنْ عبدِ الله بنِ عبّاسٍ أنَّ عمرَ بنَ الخطّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خرجَ إلى الشّأمِ حتّى إذا كانَ بسرغَ لقيهُ أمراءُ الأجنادِ أبو عبيدةَ بنُ الجرّاحِ، وأصحابهُ، فأخبروهُ أنَّ الوباءَ قدْ وقعَ بأرضِ الشّأمِ.

قالَ ابنُ عبّاسٍ: فقالَ عمرُ ادعُ لي المهاجرينَ الأوّلينَ، فدعاهمْ، فاستشارهمْ، وأخبرهمْ أنَّ الوباءَ قدْ وقعَ بالشّأمِ، فاختلفوا، فقالَ بعضهمْ: قدْ خرجتَ لأمرٍ، ولا نرى أنْ ترجعَ عنهُ، وقالَ بعضهمْ: معكَ بقيّةُ النّاسِ، وأصحابُ رسولِ الله ﷺ، ولا نرى أنْ تقدمهمْ على هذا الوباءِ.

فقالَ: ارتفعوا عنّي.

ثمَّ قالَ: ادعوا لي الأنصارَ، فدعوتهمْ، فاستشارهمْ، فسلكوا سبيلَ المهاجرينَ، واختلفوا كاختلافهمْ، فقالَ: ارتفعوا عنّي.

ثمَّ قالَ: ادعُ لي منْ كانَ ها هنا منْ مشيخةِ قريشٍ منْ مهاجرةِ الفتحِ، فدعوتهمْ، فلمْ يختلفْ منهمْ عليهِ رجلانِ، فقالوا: نرى أنْ ترجعَ بالنّاسِ، ولا تقدمهمْ على هذا الوباءِ، فنادى عمرُ في النّاسِ: إنّي مصبّحٌ على ظهرٍ، فأصبحوا عليهِ.

---

(١) زاد المعاد [٣/ ٢٤٠]، وانظر: السيرة النبوية [٢/ ٢٢٣] لابن هشام.

قالَ أبو عبيدةَ بنُ الجرّاحِ: أفراراً منْ قدرِ اللهِ؟

فقالَ عمرُ: لوْ غيركَ قالها يا أبا عبيدةَ!

نعمْ نفرُّ منْ قدرِ اللهِ إلى قدرِ اللهِ، أرأيتَ لوْ كانَ لكَ إبلٌ هبطتْ وادياً لهُ عدوتانِ [أي: جانبان] إحداهما خصبةٌ، والأخرى جدبةٌ أليسَ إنْ رعيتَ الخصبةَ رعيتها بقدرِ اللهِ، وإنْ رعيتَ الجدبةَ رعيتها بقدرِ اللهِ؟

قالَ: فجاءَ عبدُ الرّحمنِ بنُ عوفٍ، وكانَ متغيّباً في بعضِ حاجتهِ، فقالَ: إنَّ عندي في هذا علماً، سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «**إذا سمعتمْ بهِ بأرضٍ؛ فلا تقدموا عليهِ، وإذا وقعَ بأرضٍ وأنتمْ بها فلا تخرجوا فراراً منهُ**».

قالَ: فحمدَ اللهَ عمرُ، ثمَّ انصرفَ[1].

فائدة:

من الطّرق الوقائيّةِ من العدوى في السّنّةِ النبويّة: النّهيُ عن الخروجِ من الأرضِ الموبوءةِ، أو الدخولِ إليها.

ويعرفُ هذا الإجراءُ في الطبِّ الحديثِ بالحجرِ الصّحّيِّ، ويعدُّ الحجرُ الصّحّيُّ من طرق الوقايةِ التي سبقَ الإسلامُ إليها.

وقد توصّلَ العلماءُ في الطبِّ الحديثِ أن حصرَ المرضِ في مكان محدودٍ يتحقّقُ بإذنِ الله بمنعِ الخروجِ من الأرضِ الموبوءةِ.

فالنّهيُ عن الخروجِ من الأرضِ الموبوءةِ يمثّلُ حجراً صحّيّاً سبق إليه الإسلامُ الطبَّ بمئاتِ السنينِ، كما أنَّ منعَ الدخولِ إلى الأرض الموبوءةِ يعدُّ إجراءً وقائيّاً سبقَ إليه الإسلام[2].

---

(١) رواه البخاري [٥٧٢٩]، ومسلم [٢٢١٩].

(٢) الوقاية الصحّيّة في الإسلام دراسة حديثية للدكتور علي بن جابر وادع الثبيتي. مجلة البحوث الإسلامية [٧١/ ٣٧١-٣٧٢].

وكان يحفظُ لذوي الهيئاتِ جميلهم، ويكافئهم عليه:

عنْ جبيرِ بن مطعمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النّبيَّ ﷺ قالَ في أسارى بدرٍ: «**لوْ كانَ المطعمُ بنُ عديٍّ حيّاً، ثمَّ كلّمني في هؤلاءِ النّتنى؛ لتركتهمْ لهُ**»(١).

وذلك مكافأة له على معروفه تجاهَ النبيِّ ﷺ لّما دخلَ في جوارِ المطعمِ بنِ عديٍّ بعدَ رجوعه منَ الطائفِ لّما كان بمكّةَ كما تقدم.

وقد كافأَ صفوانَ بنَ أميةَ، وتألّفَ قلبه بعد غزوةِ حنينٍ بعدما استعارَ منه الأدرعَ.

عنْ صفوانَ بنِ أميّةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسولَ الله ﷺ استعارَ منهُ يومَ خيبرَ أدراعاً.

فقالَ: أغصباً يا محمّدُ.

فقالَ: «**بلْ عاريةٌ مضمونةٌ**».

قالَ: فضاعَ بعضها، فعرضَ عليهِ رسولُ الله ﷺ أنْ يضمنها لهُ، فقالَ: أنا اليومَ يا رسولَ الله في الإسلامِ أرغبُ(٢).

ثم عوّضهُ رسولُ الله ﷺ يومَ حنين: عنِ ابنِ شهابٍ قالَ: غزا رسولُ الله ﷺ غزوةَ الفتحِ فتحِ مكّةَ، ثمَّ خرجَ رسولُ الله ﷺ بمنْ معهُ منَ المسلمينَ، فاقتتلوا بحنينٍ، فنصرَ الله دينهُ والمسلمينَ.

وأعطى رسولُ الله ﷺ يومئذٍ صفوانَ بنَ أميّةَ مائةً منَ النّعمِ، ثمَّ مائةً، ثمَّ مائةً.

قالَ ابنُ شهابٍ: حدّثني سعيدُ بنُ المسيّبِ أنَّ صفوانَ قالَ: واللهِ لقدْ أعطاني رسولُ الله ﷺ ما أعطاني، وإنّهُ لأبغضُ النّاسِ إليَّ، فما برحَ يعطيني حتّى إنّهُ لأحبُّ النّاسِ إليَّ(٣).

وكافأ عبد الله بن أبي بن سلول، عنْ جابرِ بنِ عبدِ الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قالَ: أتى رسولُ الله ﷺ عبدَ الله بنَ أبيٍّ بعدَ ما أدخلَ حفرتهُ، فأمرَ بهِ، فأخرجَ، فوضعهُ على ركبتيهِ، ونفثَ عليهِ منْ ريقهِ، وألبسهُ قميصهُ، فالله أعلمُ، وكانَ كسا عبّاساً قميصاً.

---

(١) رواه البخاري [٣١٣٩].

(٢) رواه أبو داود [٣٥٦٢]، وأحمد [١٤٨٧٨]، واللفظ له، وصحّحه الألباني في الإرواء [١٥١٣].

(٣) رواه مسلم [٢٣١٣].

قالَ سفيانُ بن عيينة: وقالَ أبو هارونَ: وكانَ على رسولِ الله ﷺ قميصانِ، فقالَ لهُ ابنُ عبدِ الله: يا رسولَ الله، ألبسْ أبي قميصكَ الّذي يلي جلدكَ.

قالَ سفيانُ: فيرونَ أنَّ النّبيَّ ﷺ ألبسَ عبدَ الله قميصهُ؛ مكافأةً لما صنعَ[١].

وكان يستعين بهم للقضاء على المنكرات:

عن جريرِ بنِ عبدِ الله البجليِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: قالَ لي النّبيُّ ﷺ: «**ألا تريحني منْ ذي الخلصةِ**». وكانَ بيتاً في خثعمَ، يسمّى الكعبةَ اليمانيةَ[٢]. فانطلقتُ في خمسينَ ومائةِ فارسٍ منْ أحمسَ، وكانوا أصحابَ خيلٍ، وكنتُ لا أثبتُ على الخيلِ.

فضربَ في صدري حتّى رأيتُ أثرَ أصابعهِ في صدري، وقالَ: «**اللهمَّ ثبّتهُ واجعلهُ هادياً مهديّاً**».

فانطلقَ إليها، فكسرها، وحرّقها، ثمَّ بعثَ إلى رسولِ الله ﷺ.

فقالَ رسولُ جريرٍ: والّذي بعثكَ بالحقِّ ما جئتكَ حتّى تركتها كأنّها جملٌ أجربُ[٣].

قالَ: فباركَ في خيلِ أحمسَ، ورجالها -خمسَ مرّاتٍ-[٤].

وخصَّ جريراً بذلكَ لأنّها كانتْ في بلاد قومه، وكانَ هوَ منْ أشرافهمْ[٥].

وكلّفَ المغيرةَ بنَ شعبةَ، وأبا سفيانَ بهدمِ الرّبّة، وثنٌ كانَ بينَ ظهرانيِ الطّائفِ يسترُ، ويهدى لهُ الهديُ كما يهدى لبيتِ الله الحرامِ[٦].

---

(١) رواه البخاري [١٣٥٠] -واللفظ له- ومسلم [٢٧٧٣] مختصراً.

(٢) وهوَ بيتٌ في اليمن كانَ فيهِ أصنامٌ يعبدونها. شرح النووي على صحيح مسلم [١٦/ ٣٥].

(٣) معناهُ مطلّي بالقطرانِ لما بهِ منْ الجربِ، فصارَ أسود لذلكَ، يعني صارتْ سوداء منْ إحراقها. شرح النووي على صحيح مسلم [١٦/ ٣٦].

(٤) رواه البخاري [٣٠٢٠]، ومسلم [٢٤٧٦].

(٥) فتح الباري [٨/ ٧٢].

(٦) زاد المعاد [٣/ ٥٢٣].

وكان يؤلّفُ قلوبَ ذوي الهيئاتِ، فيزيدُ في أعطياتهم، ويقدّمهم على من وراءهم:

فبعد غزوةِ حنينٍ بعدما أفاءَ الله على رسوله ﷺ منَ الغنائمِ أعطى ذوي الهيئاتِ من المؤلّفةِ قلوبهم، وحديثي الإسلامِ من قريشٍ أعطياتٍ كثيرةً:

عن رافعِ بنِ خديجٍ رضي الله عنه قالَ: أعطى رسولُ الله ﷺ أبا سفيانَ بنَ حربٍ، وصفوانَ بنَ أميّةَ، وعيينةَ بنَ حصنٍ، والأقرعَ بنَ حابسٍ، كلَّ إنسانٍ منهمْ مائةً منَ الإبلِ، وأعطى عبّاسَ بنَ مرداسٍ دونَ ذلكَ، فقالَ عبّاسُ بنُ مرداسٍ:

أتجعلُ نهبي، ونهبَ العبيـ ـدِ بينَ عيينةَ، والأقرعِ
فما كانَ بدرٌ، ولا حابسٌ يفوقانِ مرداسَ في المجمعِ
وما كنتُ دونَ امرئٍ منهما ومنْ تخفضِ اليومَ لا يرفعِ

قالَ: فأتمَّ لهُ رسولُ الله ﷺ مائةً[1].

وهكذا كان يعاملهم النبيُّ ﷺ، وكانَ لهذهِ المعاملةِ أثرٌ كبيرٌ في نفوسهم، فمنهم منْ أسلمَ، ومنهمْ من كفَّ شرّهُ.

وعنْ أبي سعيدٍ الخدريِّ رضي الله عنه قالَ: بعثَ عليٌّ وهوَ باليمنِ إلى النّبيِّ ﷺ بذهيبةٍ في تربتها، فقسمها بينَ الأقرعِ بنِ حابسٍ الحنظليِّ، ثمَّ أحدِ بني مجاشعٍ، وبينَ عيينةَ بنِ بدرٍ الفزاريِّ، وبينَ علقمةَ بنِ علاثةَ العامريِّ، ثمَّ أحدِ بني كلابٍ، وبينَ زيدِ الخيلِ الطّائيِّ، ثمَّ أحدِ بني نبهانَ، فتغيّظتْ قريشٌ والأنصارُ، فقالوا: يعطيهِ صناديدَ أهلِ نجدٍ، ويدعنا!

قالَ: «**إنّما أتألّفهمْ**».

فأقبلَ رجلٌ غائرُ العينينِ، ناتئُ الجبينِ، كثُّ اللّحيةِ، مشرفُ الوجنتينِ، محلوقُ الرّأسِ، فقالَ: يا محمّدُ اتّقِ اللهَ.

فقالَ النّبيُّ ﷺ: «**فمنْ يطيعُ الله إذا عصيتهُ؟ فيأمنني على أهلِ الأرضِ، ولا تأمنوني؟**».

فسألَ رجلٌ منَ القومِ قتلهُ -أراهُ خالدَ بنَ الوليدِ- فمنعهُ النّبيُّ ﷺ.

---

(١) رواه مسلم [١٧٥٧].

فلـمّا ولّى قالَ النّبـيُّ ﷺ: «**إنَّ منْ ضئضئِ هذا قوماً يقرءونَ القـرآنَ لا يجاوزُ حناجرهمْ، يمرقونَ منَ الإسلامِ مروقَ السّهمِ منَ الرّميّةِ، يقتلونَ أهلَ الإسلامِ، ويدعونَ أهلَ الأوثانِ، لئنْ أدركتهمْ لأقتلنّهمْ قتلَ عادٍ**»(١).

وعنْ أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ ناسـاً منَ الأنصارِ قالوا لرسـولِ الله ﷺ حينَ أفاءَ الله على رسولهِ ﷺ منْ أموالِ هوازنَ ما أفاءَ، فطفقَ يعطي رجالاً منْ قريشٍ المائةَ منَ الإبلِ، فقالوا: يغفرُ الله لرسولِ الله ﷺ يعطي قريشاً، ويدعنا، وسيوفنا تقطرُ منْ دمائهمْ!

قالَ أنسٌ: فحدّثَ رسـولُ الله ﷺ بمقالتهمْ، فأرسـلَ إلى الأنصـارِ، فجمعهمْ في قبّةٍ منْ أدمٍ، ولمْ يـدعُ معهـمْ أحـداً غيرهـمْ، فلـمّا اجتمعوا جاءهمْ رسـولُ الله ﷺ، فقـالَ: «**ما كانَ حديثٌ بلغني عنكمْ؟**».

قـالَ لـهُ فقهاؤهمْ: أمّا ذوو آرائنا يا رسـولَ الله فلمْ يقولوا شـيئاً، وأمّا أنـاسٌ منّا حديثةٌ أسنانهمْ، فقالوا: يغفرُ الله لرسولِ الله ﷺ يعطي قريشاً، ويتركُ الأنصارَ، وسيوفنا تقطرُ منْ دمائهمْ!

فقالَ رسولُ الله ﷺ: «**إنّي أعطي رجالاً حديثٌ عهدهمْ بكفرٍ، أما ترضونَ أنْ يذهبَ النّاسُ بالأموالِ، وترجعوا إلى رحالكمْ برسولِ الله ﷺ؟ فوالله ما تنقلبونَ بهِ خيرٌ ممّا ينقلبونَ بهِ**».

قالوا: بلى يا رسولَ الله، قدْ رضينا.

فقالَ لهمْ: «**إنّكمْ سـترونَ بعدي أثرةً شـديدةً، فاصبروا حتّى تلقوا الله ورسولهُ، فإنّي على الحوضِ**». [زاد مسلمٌ في رواية: قالوا: سنصبرُ]. قالَ أنسٌ: فلمْ نصبرْ(٢).

من فوائد الحديث:

فيـهِ: أنَّ للإمامِ صرفَ الخمس، وتفضيلَ النّـاس فيهِ على ما يراهُ، وأنْ يعطيَ الواحد منهُ الكثير، وأنّهُ يصرفهُ في مصالح المسلمينَ، ولهُ أنْ يعطيَ الغنيّ منهُ لمصلحةٍ.

---

(١) رواه البخاري [٧٤٣٢]، ومسلم [١٠٦٤].

(٢) رواه البخاري [٣١٤٧] ومسلم [١٠٥٩].

وفيهِ: إعطاءُ المؤلفةِ قلوبهم؛ لتثبيتهم على الإسلامِ.

وفيهِ: تواضعُ النبيِّ ﷺ.

وفيهِ: إقامةُ الحجّةِ على الخصم، وإفحامه بالحقِّ عند الحاجة إليهِ.

وفيهِ: حسنُ أدبِ الأنصارِ في تركهم المماراة، والمبالغة في الحياءِ، وبيان أنَّ الّذي نقلَ عنهمْ إنّما كانَ عنْ شبّانهمْ، لا عنْ شيوخهمْ، وكهولهمْ.

وفيهِ: مناقبُ عظيمةٌ لهمْ؛ لما اشتملَ منْ ثناء الرّسول البالغ عليهمْ.

وفيهِ: أنَّ الكبيرَ ينبّهُ الصّغيرَ على ما يغفلُ عنهُ، ويوضّح لهُ وجه الشّبهة؛ ليرجع إلى الحقِّ.

وفيهِ: المعاتبةُ، واستعطافُ المعاتبِ، وإعتابه عنْ عتبه بإقامةِ حجّة منْ عتبَ عليهِ، والاعتذارِ، والاعتراف.

وفيهِ: علمٌ منْ أعلام النّبوّة لقولهِ: «**ستلقونَ بعدي أثرةً**»، فكانَ كما قالَ.

وفيهِ: أنَّ منْ طلبَ حقّه منَ الدّنيا لا عتبَ عليهِ في ذلكَ.

وفيهِ: مشروعيّةُ الخطبةِ عند الأمرِ الّذي يحدثُ سواءٌ كانَ خاصّاً، أمْ عامّاً.

وفيهِ: جوازُ تخصيصِ بعضِ المخاطبينَ في الخطبةِ.

وفيهِ: تسليةُ منْ فاتهُ شيءٌ منَ الدّنيا بما يحصل لهُ منْ ثوابِ الآخرةِ.

وفيهِ: الحضُّ على طلب الهدايةِ، والألفةِ، والغنى.

وفيهِ: تقديمُ جانبِ الآخرةِ على الدّنيا، والصّبرُ عمّا فاتَ منها؛ ليدّخرَ ذلكَ لصاحبهِ في الآخرة، والآخرةُ خير وأبقى[1].

وفي المقابل عندما يتبيّنُ للنبيِّ ﷺ عدمَ الخير في بعض ذوي الهيئاتِ كان يعاملهم بما هم أهله من الشّدّة.

عنْ عبدِ الله بن مسعودٍ رضي الله عنه قال: بينما رسولُ الله ﷺ قائمٌ يصلّي عندَ الكعبةِ وجمعُ قريشٍ في مجالسهمْ.

---

(١) ينظر: فتح الباري [٨/ ٥١]، شرح النووي على صحيح مسلم [٧/ ١٥١].

إذْ قالَ قائلٌ منهمْ [هوَ أبو جهل]: ألا تنظرونَ إلى هذا المرائي، أيّكمْ يقومُ إلى جزورِ آلِ فلانٍ، فيعمدُ إلى فرثها ودمها وسلاها[١]، فيجيءُ بهِ، ثمَّ يمهلهُ حتّى إذا سجدَ وضعهُ بيَن كتفيهِ.

فانبعثَ أشقى القومِ [هوَ: عقبة بن أبي معيط]، فجاءَ بهِ، فنظرَ حتّى سجدَ النّبيُّ ﷺ وضعهُ على ظهرهِ بينَ كتفيهِ، وأنا أنظرُ لا أغني شيئاً، لوْ كانَ لي منعةٌ طرحتهُ عنْ رسولِ الله ﷺ[٢].

فجعلوا يضحكونَ، ويحيلُ بعضهمْ على بعضٍ، ورسولُ الله ﷺ ساجدٌ لا يرفعُ رأسهُ.

فانطلقَ منطلقٌ إلى فاطمةَ وهيَ جويريةٌ، فأقبلتْ تسعى، وثبتَ النّبيُّ ﷺ ساجداً حتّى ألقتهُ عنْ ظهرهِ، وأقبلتْ عليهمْ تسبّهمْ.

فلمّا قضى رسولُ الله ﷺ الصّلاةَ، رفعَ رأسهُ، ثمَّ قالَ: «**اللهمَّ عليكَ بقريشٍ، اللهمَّ عليكَ بقريشٍ، اللهمَّ عليكَ بقريشٍ**».

فشقَّ عليهمْ إذْ دعا عليهمْ، وكانوا يرونَ أنَّ الدّعوةَ في ذلكَ البلدِ مستجابةٌ.

ثمَّ سمّى: «**اللهمَّ عليكَ الملأَ منْ قريشٍ، اللهمَّ عليكَ بأبي جهلٍ، وعليكَ بعتبةَ بنِ ربيعةَ، وشيبةَ بنِ ربيعةَ، والوليدِ بنِ عتبةَ، وأميّةَ بنِ خلفٍ، وعقبةَ بنِ أبي معيطٍ، وعمارةَ بنِ الوليدِ**».

قال عبد الله: فوالّذي نفسي بيدهِ، لقدْ رأيتُ الّذينَ عدَّ رسولُ الله ﷺ صرعى في القليبِ[٣]، قليبِ بدرٍ، غيَر أميّةَ فإنّهُ كانَ رجلًا ضخمًا، فلمّا جرّوهُ تقطّعتْ أوصالهُ قبلَ أنْ يلقى في البئرِ[٤].

---

(١) السّلا: هوَ اللّفافة الّتي يكون فيها الولد في بطن النّاقة وسائر الحيوان، وهيَ منَ الآدميّة: المشيمة. شرح النووي على صحيح مسلم [١٢/ ١٥١].

(٢) وإنّما قالَ ذلكَ؛ لأنّهُ لمْ يكنْ لهُ بمكّةَ عشيرة؛ لكونهِ هذليّاً حليفاً، وكانَ حلفاؤهُ إذْ ذاكَ كفّاراً. فتح الباري [٦/ ٤١٥].

(٣) القليب: هيَ البئر الّتي لمْ تطوَ، وإنّما وضعوا في القليب تحقيراً لهمْ، ولئلاّ يتأذّى النّاس برائحتهمْ، والظّاهر أنَّ البئرَ لمْ يكنْ فيها ماءٌ معينٌ.

شرح النووي على صحيح مسلم [١٢/ ١٣٥]، فتح الباري [١/ ٣٥٢].

(٤) رواه البخاري [٢٤٠]، ومسلم [١٧٩٤].

من فوائد الحديث:

فيهِ: حلمهُ ﷺ عمّنْ آذاهُ، ففي روايةِ الطّيالسيّ [٣٢٣] عنِ ابن مسعود قالَ: لمْ أرهُ دعا عليهمْ إلّا يومئذ.

قال ابن حجر: وإنّما استحقّوا الدّعاءَ حينئذٍ؛ لما أقدموا عليهِ منْ الاستخفافِ بهِ ﷺ حالَ عبادةِ ربّهِ.

وفيهِ: قوّةُ نفسِ فاطمةَ منْ صغرها؛ لشرفها في قومها، ونفسها؛ لكونها صرختْ بشتمهمْ، وهمْ رءوس قريش، فلمْ يردّوا عليها.

وفيهِ: جوازُ الدّعاءِ على الظّالمِ.

وفيهِ: أنَّ المباشرةَ آكدُ منَ السّببِ، والإعانةِ؛ لقولهِ في عقبةَ «أشقى القومِ»، معَ أنّهُ كانَ فيهمْ أبو جهلٍ، وهوَ أشدُّ منهُ كفراً وأذًى للنّبيِّ ﷺ لكنَّ الشّقاءَ هنا بالنّسبةِ إلى هذهِ القصّةِ؛ لأنّهمُ اشتركوا في الأمرِ والرّضا، وانفردَ عقبةُ بالمباشرةِ، فكانَ أشقاهمْ؛ ولهذا قتلوا في الحربِ، وقتلَ هوَ صبراً[1].

قال ابن بطال: «كان الرسولُ ﷺ يحبُّ دخولَ الناسِ في الإسلامِ، فكانَ لا يعجلُ بالدّعاءِ عليهم ما دام يطمعُ في إجابتهم إلى الإسلامِ، بل كان يدعو لمن كانَ يرجو منه الإنابةَ. ومن لا يرجوهُ، ويخشى ضرّهُ، وشوكته يدعو عليه، كما دعا عليهم بسنين كسنى يوسفَ، ودعا على صناديدِ قريشٍ؛ لكثرة أذاهم وعداوتهم، فأجيبتْ دعوته فيهم، فقتلوا ببدرٍ، كما أسلم كثيرٌ ممن دعا له بالهدى»[2].

وقد كان يغلظُ عليهم أحياناً في القول:

عن عروةَ قال: قلتُ لعبدِ الله بنِ عمرو بنِ العاصِ: ما أكثرَ ما رأيتَ قريشاً أصابتْ منْ رسولِ الله فيما كانتْ تظهرُ منْ عداوتهِ؟

قالَ: حضرتهمْ وقدْ اجتمعَ أشرافهمْ يوماً في الحجرِ، فذكروا رسولَ الله ﷺ.

---

(١) فتح الباري [١/ ٣٥٢].

(٢) شرح ابن بطال على صحيح البخاري [٩ / ١٤٩].

فقالوا: ما رأينا مثلَ ما صبرنا عليهِ منْ هذا الرّجلِ قطُّ، سفّهَ أحلامنا، وشتمَ آباءنا، وعابَ ديننا، وفرّقَ جماعتنا، وسبَّ آلهتنا، لقدْ صبرنا منهُ على أمرٍ عظيمٍ.

فبينما همْ كذلكَ، إذْ طلعَ عليهمْ رسولُ الله ﷺ، فأقبلَ يمشي حتّى استلمَ الرّكنَ، ثمَّ مرَّ بهمْ طائفاً بالبيتِ.

فلمّا أنْ مرَّ بهمْ غمزوهُ ببعضِ ما يقولُ.

قالَ: فعرفتُ ذلكَ في وجههِ، ثمَّ مضى، فلمّا مرَّ بهمْ الثّانيةَ غمزوهُ بمثلها، فعرفتُ ذلكَ في وجههِ، ثمَّ مضى.

ثمَّ مرَّ بهمُ الثّالثةَ، فغمزوهُ بمثلها، فقالَ: «**تسمعونَ يا معشرَ قريشٍ، أما والّذي نفسُ محمّدٍ بيدهِ لقدْ جئتكمْ بالذّبحِ**».

فأخذتِ القومَ كلمتهُ حتّى ما منهمْ رجلٌ إلّا كأنّما على رأسهِ طائرٌ واقعٌ، حتّى إنَّ أشدّهمْ فيهِ وصاةً قبلَ ذلكَ ليرفؤهُ[1] بأحسنِ ما يجدُ منَ القولِ حتّى إنّهُ ليقولُ: «**انصرفْ يا أبا القاسمِ انصرفْ راشداً، فوالله ما كنتَ جهولاً!**».

فانصرفَ رسولُ الله ﷺ.

حتّى إذا كانَ الغدُ اجتمعوا في الحجرِ وأنا معهمْ، فقالَ بعضهمْ لبعضٍ: ذكرتمْ ما بلغَ منكمْ، وما بلغكمْ عنهُ حتّى إذا بادأكمْ بما تكرهونَ تركتموهُ.

فبينما همْ في ذلكَ إذْ طلعَ رسولُ الله ﷺ، فوثبوا إليهِ وثبةَ رجلٍ واحدٍ، فأحاطوا بهِ يقولونَ لهُ: أنتَ الّذي تقولُ كذا وكذا؟ لما كانَ يبلغهمْ عنهُ منْ عيبِ آلهتهمْ، ودينهمْ.

فيقولُ رسولُ الله ﷺ: «**نعمْ أنا الّذي أقولُ ذلكَ**».

قالَ: فلقدْ رأيتُ رجلاً منهمْ أخذَ بمجمعِ ردائهِ، وقامَ أبو بكرٍ الصّدّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دونهُ يقولُ وهوَ يبكي: «أتقتلونَ رجلاً أنْ يقولَ ربّيَ الله»، ثمَّ انصرفوا عنهُ.

فإنَّ ذلكَ لأشدُّ ما رأيتُ قريشاً بلغتْ منهُ قطُّ[2].

---

(١) أيْ: يسكّنه، ويرفقُ بهِ، ويدعو لهُ. النهاية [٢/ ٢٤١]

(٢) رواه أحمد [٦٩٩٦]، وحسّنه الألباني في التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان [٩/ ٢٨٧].

وكان يعلّم الجفاةَ منهم ما ينبغي فعله:

عن أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: قبّلَ رسولُ الله ﷺ الحسنَ بنَ عليٍّ، وعندهُ الأقرعُ بنُ حابسٍ التّميميُّ جالساً، فقالَ الأقرعُ إنَّ لي عشرةً منَ الولدِ ما قبّلتُ منهمْ أحداً، فنظرَ إليهِ رسولُ الله ﷺ، ثمَّ قالَ: «**منْ لا يرحمُ لا يرحمُ**»(١).

قال النووي: «قالَ العلماء: هذا عامٌّ يتناول رحمةَ الأطفال، وغيرهمْ»(٢).

منازلُ النّاسِ في الدّنيا منوّعةٌ ... ما بينَ مرتفعٍ فيها ومستفلِ
وهمْ لبعضٍ وإنْ لمْ يشعروا خدمٌ ... رغمَ التّنوّعِ في الأشغالِ والعملِ
فلننزلِ النّاسَ في الدّنيا منازلهمْ ... وليحترمْ بعضنا بعضاً بلا جدلِ
راعى النّبيُّ ذوي الهيئاتِ، إنَّ لهمْ ... مكانةً لمْ تزلْ في الأعصرِ الأولِ
فحينَ يرعاهمُ يرعى قبائلهمْ ... فإنّهمْ تبعٌ للقائدِ البطلِ
يدعو الكبيرَ، فإنْ يسلمْ كبيرهمُ ... تلفِ الصّغارَ سريعاً تابعي الرّجلِ
وليسَ ييأسُ منْ إسلامهمْ أبداً ... فدعوةُ الله لا تخلو منَ الأملِ
حتّى إذا أسلموا أبدى بهمْ فرحاً ... وبشّرَ القومَ مثلَ الصّيّبِ الهطلِ
تجاوزَ الله، فليستأنفوا عملاً ... وليحسنوا في الّذي يأتي منَ العملِ
وإنْ يكنْ منْ ذوي الهيئاتِ منْ زللٍ ... يعفو ويصفحُ عمّا كانَ منْ زللِ
إذا أتاهُ ذوو الهيئاتِ هشَّ لهمْ ... وأنزلَ القومَ منهُ أكرمَ النّزلِ
وزارهمْ مثلَ ما زاروهُ يسعدهمْ ... وقدْ تناولَ معهمْ أيسرَ الأكلِ
يشاورُ القومَ معنيّاً بحكمتهمْ ... أخذاً بها، ليسَ للتّمويهِ والجدلِ
يزيدهمْ أعطياتٍ؛ كيْ يؤلّفهمْ ... فيثبتَ القلبُ في الإسلامِ كالجبلِ

(١) رواه البخاري [٥٩٩٧]، ومسلم [٢٣١٨].
(٢) شرح النووي على صحيح مسلم [١٥/ ٧٧].